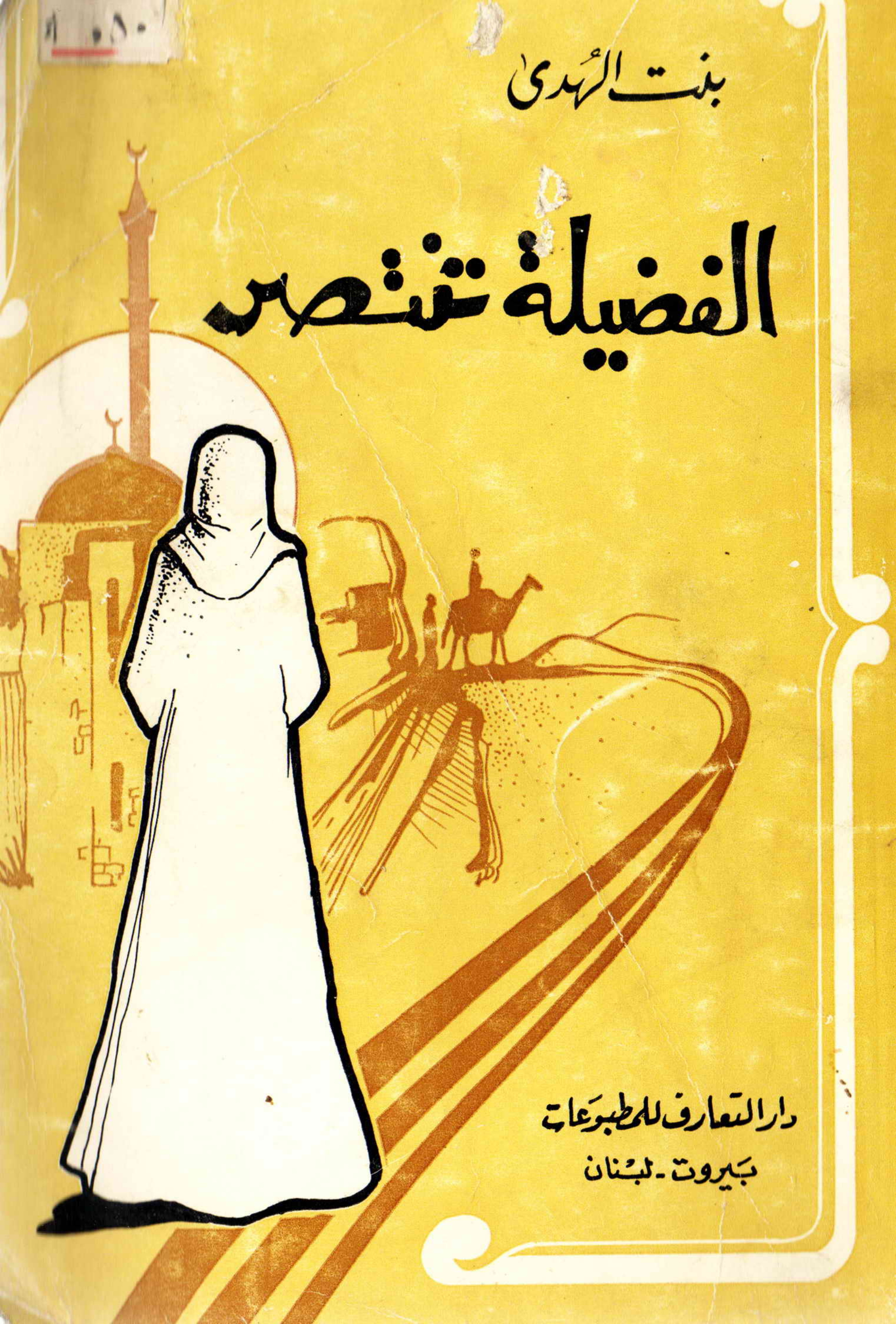


بنت الهدى
الفضيلة تنتصر
دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان



الفضيلة تنتصر



بنت الهدى

الفضيلة تنتصر

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

شارع سوريا - بناية درويش - الطابق الثالث
ص.ب ٨٦٠١ - هاتف: ٢٤٧٢٨٠ بيروت لبنان



الطبعة السادسة

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

المقـــدِّمة

هذه ـ قارئي العزيز ـ ليست قصة ، فلست قصاصة ولا كاتبة للقصة .. بل اني لم أحاول قبل الآن ان أكتب قصة . إلا ان هذا الذي أقدمه اليوم اليك ، راجياً ان ينـــال منك الرضا والقبول ، لا يعدو ان يكون صورة من صور المجتمع الذي نعيشه وانموذجاً من واقع الحياة التي نحياها . حيث تتصارع قوى الخير والشر وتلتحم العقيدة بجيشها الفكري والروحي في معركة مع حضارات الاستعمار وأخلاق المستعمرين .

أنا لا أقول ان الخيال لعب دوره في تجسيد صورة محدودة لهذا الصراع لكي يبرزه بطريقة ترضيك وتدفعك الى متابعته ولكن غايتي الواقعية ، هي إبراز جوهر الصراع لارتوشاته وهوامشه .. فاذا كنت قد نجحت في الجوهر والصورة معاً فهذا غاية ما أتمناه وإلا فاني على ثقة من قدرة قصتك هذه على إبراز المحتوى العقائدي للصراع الدائر بين دعوتي الفضيلة والرذيلة وجوهر التناقض الذي تعاني منه حياة كل مسلم ومسلمة في هذا

العصر . على أن ما قمت به لا يعدو عن كونه محاولة بنّاءة لفتح الطريق وتعبيده بغية السير في إحياء جهـــاز اعلامي صامت من أجهزة الاعلام التي تواكب سيرنا ونحن في بداية المنعطف .

بنت الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

في شرفة أحد المنازل جلست فتاتان تكبر أحداهما الأخرى ببضع سنين ، وإن كانت كبراهما تبدو أكبر من واقعها ، نظراً لتراكم الأصباغ على وجهها ، وتعقيد تسريحتها ومكياجها الصارخ ... لكن الثانية كانت على العكس منها ؛ فهي تبدو وكأنها في السادسة عشر ، مع انها تناهز العشرين ... وكان شعرها الذهبي مرسلاً على كتفيها ببساطة محببة ، وقد دل وضعها على انها هي صاحبة البيت ، وكانت تستمع الى رفيقتها .. وقد لاحت على ملامحها علامات الاستياء ، فلم يكن كلام صاحبتها بالكلام المهذب ، ولم تكن قد اعتادت على الخوض في مثله أو الاستماع الى هذا النمط من الحديث ، فمحدثتها هذه هي بنت خالتها وقد رجعت وشيكاً من أوروبا بعد مدة قضتها هناك بأمل

ان يحصل زوجهـــا على شهادة جامعية ، وبعد ان يأسا من ذلك عادا دون أن يتمكن زوجها من نيل الشهادة . تلك هي سعاد ... وقد سمعت أخيراً نبأ عقد قران بنت خالتها نقاء فبادرت الى زيارتها بعد سماعها للخبر مباشرة وهي مدفوعة الى ذلك بدوافع عديدة ... وفعلاً فقد كانت تمهد الطريق للدخول في الموضوع فهي مندفعة تحدث بنت خالتها عن أوروبا وعن معالم الحضارة التي سحرتها ، وتحبب اليها السفر الى هنـــاك ، وتحشو حديثها بكلمات ونكات مبتذلة كانت لها تأثير عكسي على نقاء ! فقد كانت تتجهم بدلاً عن الضحك، وتضيق بالحديث بدلاً من الخوض فيه . فهي فتاة مهذبة نشأت في أحضان أسرة مستقيمة محافظة حريصة على الآداب الدينية . وقد عقد قرانها على شاب عريق الأصل رفيع المنبت حاصـــل على شهادة (الليسانس) يدير محلاً تجارياً يستورد فيه البضائع من الخارج . وعلى هذا فقد استقل بعمله التجاري الذي يدر عليه أرباحاً طائلة وهو شاب مسلم واقعي يؤمن بالاسلام كمبدأ وعقيـــدة ونظام . وقد عجل بالعقد الشرعي ليملك حريته في الاتصال بعروسه . وقد قامت بينهما بعد ذلك علاقة حب واعجاب متبادل أخذت تتزايد على مر الأيام ، وكانت بعض ظروف الزوج الخاصة تستوجب تأخير الزفاف . وقد ضاعف اتصال نقاء بعريسها من ثبات روحياتها العالية ومن حرصها البالغ على مثل الاسلام وآدابه ... ولهذا فقد كان من حق نقاء أن

تستنكر على بنت خالتها أغلب ما كانت تقول ... ولكنها لم تر من اللائق ان ترد عليها أو تعارضها بعنف ـ بما ان سعاد ضيفتها ـ واكتفت بالاستماع . وبعد ان أتمت سعاد كل ما في جعبتها من كلام سكتت برهة ثم أردفت قائلة :

ـ ان أحسن منطقة تقضيان فيها شهر العسل هي احدى دول أوروبا .

وهنا رأت نقاء ان الواجب يدعوها لكي ترد ، فأجابت :

ـ أوروبا ! لا ، نحن لن نذهب الى أي بلد أوروبي ... ولكن قد نذهب الى بعض البلدان الاسلامية ...

وضحكت سعاد وهي ترد عليها في شيء من التهكم .

ـ لعلكما تنويان ان تقضيا شهر عسلكما في مكة وفي موسم الحج ..

ـ لا ، قد نذهب الى الحج ولكن ليس خلال أيام شهر العسل .

ـ ولماذا لا تقترحين على زوجك السفر الى لندن أو باريس هل تعتقدين انه يتمكن على ذلك من الناحية المادية ؟

ـ ان المادة ليست كل شيء يا سعاد ! ولكن ابراهيم لن يوافق على ذلك مطلقاً وكذلك أنا أيضاً .

ـ لعله يخشى السفر بالطائرة ، يمكنكما إذن ان تسافرا في

السيارة أو على ظهر الباخرة . وعلى فكرة هل يملك زوجك سيارة يا نقاء ؟

ـ السيارة موجودة يا سعاد ، وهو لا يخاف من ركوب الطائرة أبداً ، ولكن ابراهيم شاب مسلم محافظ لا يحلو له ان يقضي شهر العسل في أوروبا .

ـ آه .. هل هو متأخر الى هذا الحد ! ان هذا شيء مخيف، له ما بعده يا نقاء ...

ـ لا يا سعاد انه شاب مثقف متنور الأفكار .

ـ إذن فما الذي يمنعه من السفر معك الى أوروبا ؟

ـ الدين ...

ـ ماذا ! الدين ؟!

ـ نعم ، الدين .. والدين فقط .

ـ هل اتمكن أن أفهم من هذا ان زوجك رجل متدين ؟!

ـ نعم ، والحمد لله .

ـ أنتِ تقولين : والحمد لله ، لأنكِ تجهلين معنى أن تتزوج فتاة عصرية مثقفة من رجل متدين وتجهلين ما يستوجب ذلك من قيود وحدود واحكام صارمة .

ـ لا ، أبداً أنا لست كما تظنين غافلة أو جاهلة ، ولكني فتاة مسلمة اعرف ان للاسلام احكامه وآدابه ...

ـ وهل قوانين الاسلام إلا قيود تشدك بأغلالها القاسية ! وهل آدابه سوى أغـــوار سحيقة تحجبك عن المجتمع تحت سجوفها ؟

أنت تقفين الآن على أبواب الحيـــاة فلا تمكني الأفكار الرجعية أن تشوه مستقبلك السعيد ..

ـ أنتِ غلطانة يا سعاد! ابراهيم قادر على أن يهبني السعادة الواقعية في الحياة ، وأنا لا أهوى غير السعادة التي يهيأها لي ، فقد أصبح بالنسبة لي كل شيء ..

ـ بالرغم من هذا ، فانك لن تصبحي له كل شيء بل ولن تتمكني أن تكوني عنده شيئاً بل ستكونين على هامش حياته وعلى الهامش دائماً !.

ـ سعاد !! اسحبي كلامك بسرعة ، فان لي لدى ابراهيم المنزلة اللائقة والمحل الرفيع ، الرفيع من الحب والحنان ..

ـ ما دمت في دور الخطوبة وما دامت لم يتمتع بك كما يريد، ولكنه متى اطمأن الى استيلائه عليك سوف ترين الرجل المسلم كيف يكون !!

ـ وانت ألست مسلمة يا سعاد ؟!

ـ طبعاً أنا مسلمة ولكن ليس على غرار اسلام ابراهيم ، فمن رأيي ان للمرأة الحرية الكاملة بالتمتع في الحياة وبما فيها من بهارج ولذائذ ، ولكن ابراهيم يأبى إلا أن يجعل من المرأة

العوبة طيعة وأداة محكومة لا أكثر ولا أقل .

ـ عجيب أمرك يا سعاد ! ما الذي يدفعك الى هذه النقمة التي تنقمينها على الاســـلام وانت مسلمة !؟ هل خدعتك أوربا ؟!

ـ أبداً .. لم تخدعني أوروبا ، ولكن حبي لك هو الذي دفعني إلى التصريح بآرائي في هذا الصدد . لقد سررت كثيراً عندما سمعت نبأ خطوبتك يا نقاء . ولكن الآن ؟!

ـ ولكن الآن ماذا ؟!.

ـ اذا أردت الواقع فاني قد اسفت بل حزنت ، فقد كنت أعدك لمستقبل أفضل ..

ـ ما يدريك يا سعاد ، فلعلني سعيدة جـــداً ، كما أنا في الواقع .

ـ اذا كان زوجك من النفر الذين يتمشدقون بالاســـلام ومفاهيمه فهو لن يتمكن من أسعادك مطلقاً .

ـ أنا لا أرتاح الى تعبيرك هذا يا سعاد ، فمن تعنين بالنفر ؟ ليس الاسلام وقفاً على نفر فحسب ، ألا ترين الملايين المؤمنة بالإسلام في مكان ؟

ـ أنا أقصد بالنفر : هؤلاء الذين برزوا علينا بأقاويلهم الجوفاء التي لا يبغون من ورائها سوى سيطرتهم على جنس المرأة ، والتحكم فيها ، بفرض القيود والالتزامات .

ـ ولكن الرجل المسلم ، له أيضاً أحكامه الخاصه والتزاماته المعينة ، وليست الالتزامات وقفاً على النساء فقط .

ـ لكنهم أحـــرار يفعلون ما يشــاؤون بدون رقيب أو حسيب . أو لم يذهب ابراهيم الى أوروبا من قبل ، ألا يعتزم أن يذهب اليها بعد الآن ؟

ـ انه سوف يذهب إلى فرنسا بعد مدة وجيزة لأجل التعاقد مع احدى الشركات ، ولتقديم أطروحته للحصول على شهادة الدكتوراه .

ـ فهذا إذن حلال ، ولكن ذهابك حرام . انه في حل من الإسلام مهما دار وسار ولكن قيود الإسلام لا تطوق سوى عنقك يا نقاء .

ـ أنا لست مقيدة يا سعاد ! فأنا سعيدة بابراهيم ، وبكل مثله ومفاهيمه .

ـ أنا آمل ان تكوني سعيدة ولكنك الآن في غفلة وأخشى ان لا تصحي منها إلا بعد فوات الأوان .

ـ ماذا تعنين يا سعاد ؟!..

ـ اعني أن الزواج لا يمكن ان يكون زواجاً ناجحاً إذا لم يكن قائماً على أساس من مفاهيم الحضارة الحديثة ، والفتاة لن تحصل على السعادة إلا بزواج ناجح، ولهذا ترين أنالفتاة العصرية

أخذت تتحرر من قيـود أهلها وتستقل باختيــار الزوج الذي تريده .

ـ أنا وابراهيم على اتفاق تام ولن تزيدنا الأيام إلا ثقة وتفان ووئاماً .

ـ قد تبقين أنتِ قائمة على اخلاصك يا نقاء ، ولكن الرجال ليسـوا كالمرأة انهم يخـدعون زوجاتهم بأساليب وأساليب ، منها الدين ومنها العفة والفضيلة ، فهم يحتجزونها في الدار بحجة انها مسلمة ، ويضنون عليها بكل غال ونفيس ببرهان انها عفيفة فاضلة .

ـ وهل تعتبرين جلوس المرأة في دارها وعشها السعيـد احتجازاً ؟!

ـ نعم ، فالمرأة لا تتمكن من الاحتفاظ بزوجها إلا اذا سايرته ورافقته في رحلاته وسفراته وسهراته وحفلاته ، ولكن المرأة التي تقبع في عقر دارها وتترك لزوجها الحبل على الغارب لا يمكن لها أن تركن الى دوام سعادتها في الحياة الزوجية .

ـ وهل تعرفين ابراهيم يا سعاد ؟ ليتك كنت عرفتيه ..

هنا سكتت سعاد لحظة حاولت فيها ان يبدو صوتها طبيعياً وهي تقول :

ـ لم يسبق لي ان رأيته يا عزيزتي .

ـ لو عرفتيه لتبدلت نظرتك نحوه تبدلاً كلياً يا سعاد !

فهو رجل مثالي ، حلم العذارى المؤمنات ..

وبدأ الارتباك على سعاد ، وتململت في جلستها ، ثم قامت وهي تقول :

ـ عليَّ الآن أن أذهب فقد طال بي الجلوس ، ثم اني مدعوة الى حفلة هذه الليلة .

وعجبت نقاء لفورية عزم سعاد على الخروج ، فقد كانت مندفعة في كلامها وكأنها لا تنوي الانصراف ، وعندما ودعتها ورجعت كان صوت أمها يتناهى اليها وهو يناديها من داخل الدار :

ـ نقاء .. نقاء .. أين أنتِ يا عزيزتي ؟

ـ ها أنا ذي يا أُماه .

ـ منذ ساعة وأنتِ جالسة وحدك في الشرفة .

ـ لا يا ماما ، لم أكن وحدي فقد كانت معي سعاد .

ـ سعاد ! ألم تنصرف سعاد منذ ساعة أو أكثر ؟

ـ نعم ولكنها اقترحت عليَّ ان نجلس قليلاً في الشرفة .

ـ لماذا ؟!.

ـ لا أدري .

ـ ولكن أمك أدرى يا نقاء .. لا بد وانها كانت تحدثك عن أوروبا وحضارتها المزعومة .

ـ تماماً كما قلت يا ماما .

ـ الويل لها من غريرة ، ألم يكفها انها لوثتها حضارة الغرب لتجيء وتسكب على أذنيك كلماتها السامة ، انها خشيت أن تخوض في هذا الموضوع أمامي ، فآثرت ان تجتمع بك على حدة . يا لها من شيطانة ..

ـ اماه ! انها بنت اختك فلا يصح لك ان تنعتيها بهذه الأوصاف !.

ـ أنا بريئة منها ومن سلوكها المنحرف ، انها كانت السبب في التعجيل بموت أختي ، فلم تكن أمها تطيق منها هذا السلوك ، والآن تعالي حدثيني عما كانت تحدثك عنه سعاد ، لأرى أي نوع من الحديث هو ؟.

ـ دعي عنك ذلك يا ماما ، فهي لم تكن تقصد من وراء كلامها أي سوء .

ـ ليتها كانت هكذا ، وليتك تعرفينها على حقيقتها لكي لا تغرك بكلماتها المعسولة .

ـ هوني عليك يا ماما ، فأنا لا أتأثر بكلام سعاد وافكارها ولكني لا أوافق على نعتها بهذه النعوت ، انها بنت خالتي على كل حال .

ثم ذهبت نقاء الى غرفتها واستلقت على سريرها ، وهي تحاول أن تصرف افكارها عن سعاد ، فهي لا تشك لحظة في

اخلاص ابراهيم ، وانه سوف لن يتوانى عن تهيئة جميع أسباب السعادة لها في الحاضر والمستقبل ، ثم انها بطبعها أيضاً كانت تشعر بخطأ سعاد وانحرافها بأفكارها عن الصواب .. فكرت بالمكسب الذي جنته سعاد من حياتها هذه وهي لم تحصل أخيراً إلا على زوج عاطل ، لم يتمكن حتى من نيل شهادة جامعية أولية ، سواءاً في بلده أو في الخارج .

وقد استعاض عن ذلك بأمواله التي ورثها عن أبيـه ينفق منها ما يشاء فيمغامراته ولهوه دون أن يتخذ نعمة الله مصاريف خير وطمأنينة وهناء ، لكن سعاد لم يكن يهمها غير المـال ، ولا تعيش إلا لأجله . وصممت نقاء على أن تسأل إبراهيم عن واقع المرأة في الإسلام ، وعن حقيقة نظرته نحوها ، فهي واثقة من أنـــه كفيل بإيضاح الواقع وتفسير ناحية فرق المرأة عن الرجل في الإسلام .

الفصل الثاني

أما سعاد فقد استقلت سيارتها ، وانطلقت بأقصى سرعة ، وكأنها كانت تحاول أن تصب جام غضبها على هذه الآلات المتحركة ، وعندما وصلت الدار توجهت إلى غرفتها دون أن تعرج على الصالون ، لترى زوجها هل رجع أم لا ؟ وألقت بنفسها على الكرسي وهي في حالة انفعال عصيب . وتمتمت قائلة :

ـ الويل له من عنيد ، ألم يكفه أنه ردني عن نفسه ذلك الرد القاسي حتى جاء لينكث جراحي ، فخطب نقاء ، فهو يظن أن نقاء تنسجم مع مفاهيمه ومثله ، وهي التي لا ميزة لها عليّ إلا لتوهمه أنها فتاة فاضلة ... أنا التي سعيت إليه بنفسي قبل أربع سنوات ، لم يستجب لتوسلاتي بحجة أني طائشة ومنحرفة عن آداب الإسلام ، الإسلام الذي يؤمن بمفاهيمه ، ولكنه سوف يعلم أن نقاء هذه لن تكون غير غانية لعوب ، سوف أعرف كيف أنفث فيها السم الذي تجرعته من قبل ، والذي أدى إلى ما أنا عليه من ضيعة وتفاهة في الحياة ، سوف أسدد نحوها نفس

السهم الذي أرداني وحرمني من إبراهيم ، سهم الحضارة الحديثة ، سوف أجعلها واحدة من آلاف الفتيات المخدوعات اللواتي سرن وراء النفير الأجنبي فتحطمت حياتهن من جراء ذلك ، أو لست واحدة منهن ؟.. ألم أضطر أخيراً إلى الزواج من هذا الرجل التافه على أمل أن أشبع نهمي إلى المال وأتمتع بما تصبو إليه نفسي من متعة ولهو ؟.. ألم أخضع لسلطان ماله فتجرعت مجونه وتبذله لكي أبقى على الذهب بين يدي ؟.. سوف أحرم نقاء من إبراهيم كما حرمني نفسه من قبل . سوف لن أمكنه من الحصول على غايته المنشودة ، فهو كان يسعى خلف زوجة مثالية مسلمة مستقيمة .. وسوف أريه ان ذلك محال، سوف يعرف أن نقاء لا تختلف عن سعاد لو أتيحت لها الفرصة، أنه يذهب للحصول على شهادة الدكتوراه في الوقت الذي لم يحصل زوجي حتى على شهادة جامعية أولية . محال أن أدع نقاء تنعم بزوج كإبراهيم، أنا كنت أعرف أنه رجل عبقري صلب العقيدة ولكنه عنيد رجعي مغرور .

وهنا شعرت سعاد أن باب غرفتها يفتح ببطيء ، فتطلعت نحوها لترى زوجها محمود وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تخابث ثم قال :

– لقد ظننتك مريضة يا سعاد وأنتِ تتجهين إلى غرفتك دون أن تعرجي عليّ ، والآن هل لي أن أدخل !؟..

وحاولت سعاد أن تبدو طبيعية ، وهي ترد عليه قائلة :

– كنت أشعر بصداع شديد منعني أن أعرج على الصالون

– ولكنك الآن في صحة جيدة ، ثم هل أن جلوسك على هذا الكرسي وأنت في كامل ملابسك شيء مريح ؟ أم أن مجرد رؤيتي بالخصوص كانت تتعبك يا سعاد ؟

– أرجوك يا محمود .. اراك لا تتوانى عـن إثارتي في كل مناسبة ، أنا لم أكن أعرف وجودك في البيت .

– شكراً ... ألم تلاحظي وقوف السيارة في الباب ؟!.

– أبداً ... فقد فاتني ذلك .

– لا بد أنك كنت في شغل شاغل عن ذلك .

– قلت لك : أنني كنت أشعر بصداع شديد .

– ولكنك الآن على ما يبدو في أحسن صحة والحمد لله .

– محمود ... مالي أراك تأبى إلا أن تغيضني بأية طريقة ؟

– معاذ الله يا سعاد، فما أنا سوى واحد من عشرات الراكعين على قدميك ، قدميك ، و ...

– يكفي يا محمود ، أنا أعرف كلماتك وأقاويلك مقدماً فلا داعي لتكرارها ، فأنا أصبحت أتمكن أن أخمن ما الذي سوف تتحفني به من حكم وآيات .

وهل تروقك الحكم يا سعاد ؟ أو هـل تتمكني أن تفهمي حكمة واحدة لو كنت حكيماً ؟ إن من حسن طالعك أن ساقني الحظ إليك ، فأنت لا تكوني تصلحي لزوج سواي .

– وأنت ، هل أن هناك امرأة كانت تطيقك غيري وأنت على ما عليه من تفاهة في الحياة؟! أنت تتكلم عني وتنسى نفسك.

– وكيف ؟ هل أنا سيء إلى هذه الدرجة ؟!

– المهم أن تعرف أني لو لم أكن زوجة ممتازة لما تحملتك يوماً واحداً فليس لديك ما يحببك إلى المرأة .

– فلماذا إذن رضيت بي زوجاً ؟ ولماذا طلبت مني ذلك ودعوتني إليه ؟!

– يا لك من رجل وضيع ..

– لا بأس يا سعاد ، أنا أعلم أن عندي ما يشدك إليّ ، فأنت تعبدين المال وعندي منه الشيء الكثير ، وعندك أيضاً ما يشدني إليك فأنا أعبد اللذة والجمال وعندك منهما الشيء الكثير ، ثم أني أريد أن أعيش حراً ، فلا بد وأن تكون زوجتي حرة أيضاً ، وعلى هذا فإن كلاً منا مشدود لصاحبه .

– هل انتهيت يا محمود ؟

– لا ... فمنذ يومين لم أتمكن أن أراك لحظة واحدة ، لياليك في الحفلات ... وساعات نهارك في محلات التجميل ... وكأنك قد نسيت أن لك زوجاً وبيتاً ... لا أدري ماذا كنا سنصنع لو كان لدينا طفل ؟.

نطق محمود بكلمته الأخيرة بمرارة وكأنه ينتزعها من فمه انتزاعاً ، ولكن سعاد لم تمهله لكي يكمل هجومه عليها ، فقد

وقفت وهي تقول: أرجوك أن تتركني وحدي يا محمود أنا تعبانة ومريضة أيضاً ، ولا بد لي أن أنام .

ـ إذن فأنتِ لا تريدين أن تتناولي معي طعام العشاء ؟

ـ لا ، مطلقاً اذهب عني يا محمود فإن حاليليس على مايرام

ـ أهكذا تطردينني يا سعاد، ماذا لو ذهبت إلى غير رجعة؟

وكادت سعاد أن ترد عليه قائلة : اذهب لا أرجعك الله .. ولكنها سرعان ما تمالكت عواطفها ، فمحمود بالنسبة لهـــا رصيد ضخم من المال ، فهل يصح أن تتنازل عن هذا الرصيد ؟ أنها لا تحب محمود ، بل أنها تحتقره وتنفر منه ، فهو لا يعدو عن كونه وجوداً تافهاً في الحياة ، لا يملك غير المـــال ، وحتى أساليب لهوه ومجونه هي التي علمته إياها ودلته عليها ، لكي يتسنى لها أن تعيش معه وهي حرة كما تريـد ، ولكن أمواله وبريق الذهب المكدس في صناديقه ، وداره الفخمة الشاهقة ، وسيارته الفارهة ، لم يكن في مقدورها التنازل عن كل هــذه الأمور ، ولهذا فقد حاولت أن تطبع على وجهها ابتسامة كانت قد اعتادت أن تأتي بأمثالها متى شاءت ولمن شاءت ، ثم قالت :

ـ أنت تعلم يا محمود أنــك إذا ذهبت عني فلن تطيب لي الحياة بدونك ، ولكن الصداع ـ وفي نفسها تقول الصراع ـ هو الذي يدعوني إلى الانفراد بنفسي والركون إلى الراحة .

ـ ليتك لم تكوني جميلة ، أو ليتني لم أكن عبــداً للذاتي ،

إذن لعرفت كيف أتصرف معك ، وكيف أميت فيك هـذا الغرور ، لا بد أنك تودين لو تقولين لي : ليتك لم تكن غنياً ، فدعيني أنا أقولها بدلاً عنك : ليتني لم أكن غنياً ، إذن لما وقعت في أحابيلك الشائكة .

– يا عزيزي ، أنت تتجنى عليَّ كثيراً فأنا لا أحب فيك إلا شخصك الكريم .

– شكراً.. شكراً. وأخيراً أما زلت تصرين على إقصائي؟

– إن جل ما أرجوه أن تكون قريباً مني دائماً ولكن الآن أرجوك أن تنصرف فأنا في حاجة إلى النوم .

– هكذا أنت دائماً ، كلماتك معسولة ، وأفعالك جارحة ، وها أنا ذاهب فاطمإني .

– ثم نهض محمود وغادر الغرفة دون أن يلقي عليها كلمـة وداع، وساء سعاد أن يتركها محمود غاضباً ، وخشيت إلى لحظة أن تكون قد فرطت فيه . ولكنها عادت إلى ثقتها بجمالهـا وباستحواذها عليه فرددت في نفسها قائلة :

– إن هذا لا يهم فهو رهن إشارتي حين الطلب ، لا يكلفني إرضاؤه سوى بسمة واحدة أو كلمة عذبة ، فلأدعه يغضب حتى أنهي فكري من ناحية إبراهيم ، ذلك الرجل العنيد الذي احتقرني وأزدراني بحجة المثل والمفاهيم ، والذي استهان بجمالي وفتوتي ولكوني سافرة ، ولكوني على حد تعبيره منحرفة .

واستقلت على سريرها ، وقد نسيت كل شيء عن محمود ، وخصامها معه ، فلم يكن هذا بالنسبة لها بالشيء الجديد ، وقد درجا عليه منذ اليوم الأول لزواجهما ، ولكن أفكارها كانت متجهة إلى ناحية واحدة ، ومتركزة في اتجاه واحد ، وهو كيفية الانتقام من إبراهيم ، ومن معتقداته وآرائه التي حالت به دونها ، فهي تسعى إلى أن تنتقم من إبراهيم في شخص نقاء، وأن لا تدع نقاء تفوز به دونها، أنها لن تترك نقاء تسعد وزوجاً كإبراهيم ، في الوقت الذي تعيش فيه هي مع زوج مثل محمود ، و سهرت سعاد ليلتها تفكر في أحسن طريقة للانتقام .

الفصل الثالث

أصبح الصباح ، ونقاء تتلهف لقدوم إبراهيم ، لكي تستوضحه عما تعرضت إليه سعاد في حديثها عن حق المرأة في الإسلام ، وفي الوقت المعين جاء إبراهيم ، وكان من عادته أن يعرج عليها كل يوم قبل ذهابه إلى المحل .

واستقبلته نقاء فرحة مستبشرة ، ولاحظ إبراهيم عندما استقر به الجلوس أن عند نقاء ما تحاول أن تقوله ، وأنها في طريقها إلى أن تفتح معه حديثاً ، فتناول يدها وهو يقول :

– مالك اليوم يا نقاء !

وانبتسمت نقاء وهي تقول :

– مالي !...

– أكاد أرى كلمات حائرة على شفتيك يا عزيزتي ، وأكاد أقرأ أفكاراً مضطربة في رأسك الجميل ، قولي ما عندك ، فكلي آذان صاغية ..

– هل تستمع إليّ حقاً يا إبراهيم ؟

– أي وربي فإن لذة الاستماع إليك لا تفوقها لذة على وجه الأرض .

حتى ولو كان حديثي سؤالاً ...

– أي شيء كان يا نقاء .

– إبراهيم ! ما الفرق بين المرأة والرجل في دين الإسلام ؟

– لا شيء ، فهما بشر متساويان ، للمرأة ما للرجل ، وعليها ما عليه ، وقد خلق الله المرأة والرجل من طينة واحدة .

– فلماذا إذن ؟!

– ماذا يا نقاء ؟!

– أقصد لماذا فرض الإسلام على المرأة المسلمة قيوداً لم يفرضها على الرجل ؟

– إنه لم يفرض عليها أي قيد ، سوى ما تفرضه عليها طبيعتها ويتطلبه تكوينها ، وليست المرأة المسلمة واقعة تحت أي ضغط أو تشديد من قبل الإسلام .

– أو ليس الحجاب قيداً للمرأة المسلمة ، وحائلاً دون تمتعها بالحياة كما تريد ؟ أو ليس الحجاب هو المانع الرئيسي عن سفري معك إلى أوروبا مثلاً ؟

– أبداً .. ليس حجابك هو المانع في هذه المسألة بالذات ،

وليس الحجاب بما هو حجاب يحول دون المرأة وأي شيء ، فأنا أتمكن أن أسافر معك إلى أوروبا وأنت على حجابك يا نقاء ، لو كانت أوروبا بلداً نقياً ولو كانت حضارتها حضارةً صادقة أو كان مجتمعها مجتمعاً فاضلاً . أنا حينما أعارض فكرة السفر إلى أوروبا أعارضها على حساب محيطها ومجتمعها المتحلل ، وأنا حينما أنقم على الفتيات سفرهن إلى هناك ، خوفاً عليهن من أن يتلوثن بجراثيمها السامة . ولو كنت أعرف أن في ذهابك إلى أوروبا منفعة تجنينها من وراء ذلك ، لما ترددت لحظة أن أصحبك إليها مع ما أنت عليه من حجاب .

ـ أو ليس استطلاع معالم الحضارة والمدنية هناك مكسباً مهماً يا إبراهيم ؟

ـ هذه النقطة بالذات هي مصدر جميع متاعب الفتيات ، فنحن المسلمون ، لا يصح لنا أن نعتبر أوروبا صاحبة حضارة صالحة . فالحضارة الواقعية هي حضارة الإسلام لا غير ، وليست أوروبا وحضارتها لو تعمقنا في درسها سوى تعبير مجدد مبطن عن الجاهلية ، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالمرأة الأوروبية .

وكيف ؟ أولم تنافسْ المرأة الأوروبية الرجل في بلادهـــا وتحصل على حقها كاملاً في الحياة ؟

ـ مطلقاً .. فالمرأة الأوروبية لم تحصل ضمن قوانين أوروبا على بعض ما حصلت عليه المرأة المسلمة في ظل شريعة الإسلام ، بل أنها لم تتمكن حتى من الاحتفاظ بأنوثتها ، فالمرأة الغربية

ليست سوى أداة طيعة في أيدي الرجال ، لا تملك شيئاً ، ولا تستقل في أمر من الأمور ، في الوقت الذي تتمتع فيه المرأة المسلمة بكيان مستقل ، وشخصية ثابتة ، لها حقها الكامل في التصرف بمالها وكيانها في الحياة .

المرأة الغربية مغرور بها يا نقاء ، خدعوها ببهرج الحياة وزخرفها في الوقت الذي لا تملك هي فيه حتى ذاك البهرج والزخرف ، أوهموها أنها حرة ، تغطية لنفوذ الرجل عليها في جميع المجالات . ثقي يا عزيزتي أن لو كان في أوروبا بيئة صالحة ومجتمع خير ، لصحبتك إليها راغباً غير مجبور .

– أنا على ثقة في ذلك يا إبراهيم ، ولن يعتريني الشك لحظة في حبك لي وحرصك على سعادتي ، ولكني أريد أن أحصل منك على دليل دامغ يرد على كل من يشكك في سعادة حياتنا الزوجية ، ويخشى عليها من التزامات الإسلام . أنا على يقين من صواب نهجنا في الحياة .

– وهل هناك حياة سعيدة إذا لم تنهج نهج الإسلام ، ليتك تعلمين يا نقاء ، سحب الشقاء التي تطبق على بيوت المنحرفين عن الإسلام ، والمشاكل الجسام التي تثقل كواهلهم ، وتفكك حياتهم ، وتشتت شملهم ، إن الحياة الزوجية التي تقوم على أسس صحيحة من المثل والمثالية هي التي ستكون حياة زوجية مثالية ، فكوني واثقة يا حبيبتي من أن حياتك الزوجية سوف تغدو حافلة بجميع أنواع المسرات مفعمة بألوان السعادة والنجاح .

– أنا واثقة من ذلك يا إبراهيم ، وقد اطمأننت إلى ذلك منذ اليوم الأول لخطوبتنا وعرفت أنك رجـل مثالي ، وأنك أقدر ما تكون على إسعاد زوجك في الحياة .

– وأنا واثق أيضاً أن روحك الطاهرة بصفائها ونقائهـــا تتسع لكل المثل الخيرة والمفاهيم العليا .

– شكراً لك يا إبراهيم ، أنت تمكنني أن أثق من نفسي ، وتهبني القوة في الاعتماد على سلوكي وتصرفاتي في الحياة .

وهنا ألقى إبراهيم نظرة على ساعته وكانت تقارب العاشرة ، ثم ابتسم وهو يقول :

– يتحتم عليّ أن أنصرف الآن ، فأنا على موعد مع صاحب لي في تمام العاشرة .

– أرجو أن لا أكون قد أزعجتك يا إبراهيم .

– بل العكس تماماً ، فأنا سعيد بسؤالك يا نقـاء ، ولكن آسف لعدم تمكني من المكث مدة أكثر لأستمع إلى كل ما يدور في فكرك من أسئلة ، وسوف أعود عند العصر لأستمع إلى ما تقولين إن شاء الله .

– أنا لا أسأل لنفسي يا إبراهيم ، فأنا واثقة من ديني ومن عقيدتي ، ولكنها أسئلة تتردد على السنة بعض الفتيات ، وكان لا بد لي أن أجيب عليها .

احرصي على أن تكوني بشخصك وسلوكك نعم الجواب ،

واجهدي أن تجعلي من نفسك أنموذجاً للفتاة المسلمة السعيدة .

- سوف أحاول أن أكون كذلك ، والآن حدثني هل أنت لا تزال تسعى لتقديم موعد سفرك إلى فرنسا ؟

- أنا في سبيل محاولة ذلك ، فمتى ما تقدم سفري وانتهت مهمتي هناك سوف تنتهي أيام بعدنا عن بعضنا يا نقاء ، وسوف يضمنا عشنا الهانيء السعيد .

وسكتت نقاء فلم ترد عليه واكتفت أن ابتسمت ابتسامة عذبة بريئة .. ثم نهض إبراهيم فودعها وانصرف .

وعلى طول الطريق كان يفكر وهو يقود سيارته، في نقاء ، أتراها كانت تسأل مندفعة بشعور شخصي أم مجرد سؤال ، وآلمه أن تكون أفكار الفتيات الطائشات قد شوشت على نقاء فكرها الصافي النقي ، وصمم على أن يعود فيتحدث معها في هذا الموضوع لكي يرفع عنها كل ريب أو شك ، فهو يريد من فتاة أحلامه أن تكون منسجمة معه في الفكرة والرأي والعقيدة . وكان مما حبب نقاء إليه ودفعه إلى طلب يدها هو اعتدال سلوكها وقوة شخصيتها ، فهو حريص على أن لا يقرن حياته مع فتاة نزقة طائشة تلعب مع الريح يمنة ويسرة. وقفزت إلى ذهنه فجأة ذكرى حادثة قديمة مرت به منذ أربع سنوات يوم كانت إحدى الفتيات المخدوعات تحاول أن تستدرجه نحوها بأساليب من الإغراء . ابتسم وهو يتذكر أن تلك الفتاة كانت تأمل أن تنحرف به عن الطريق السوي كيما يمكنها الحصول

عليه ، وكيف أنها كانت تحاول جره نحوها بكل طريقة وبشتى الأساليب .

وكانت ابتسامته مزيجاً من الرضا ، لصموده حين ذاك ، والرضاء لاختياره لنقاء الآن ، وود لو علم إلى أين انتهى المطاف بتلك الفتاة ، وهل تمكنت أخيراً من الحصول على صيد ثمين ؟. أو هل تمكنت من نصب أحابيلها حول رجل مسكين تخدعه كما حاولت خداعه من قبل ؟

ولكن أني له أن يفهم عنها شيئاً وهو لا يذكر حتى مجرد إسمها ، وود صادقاً أن تكون قد سعدت بزوج فاضل يسير بها إلى جادة الصواب .

الفصل الرابع

مر أسبوع نسيت نقاء خلاله حديث سعاد، وكادت أن تنسى سعاد نفسها أيضاً ، فقد كانت تعيش في نعيم مستمر وهي تتذوق في كل يوم كأساً جديدة من كؤوس السعادة والهناء ، ولم يكن لديها ما يكدر صفوها سوى ترقب قرب سفر إبراهيم . وفي أحد الأيام ذهب إبراهيم في مهمة إلى اللاذقية ، واتفق أن كانت في ذلك اليوم على موعد مع الخياطة لتذهب لعمل القياسات . ونظراً لعدم وجود إبراهيم اضطرت إلى الوقوف في الشارع لانتظار سيارة تقلها الى حيث تريد . وفجأة أبصرت أمامها سعاد وهي تترجل من سيارتها قائله :

يا لها من صدفة سعيدة ، تفضلي واركبي معي يا نقاء ! فأنا على استعداد لإيصالك إلى حيث تشائين .

ولم تشأ نقاء أن تركب مع سعاد ، فاعتذرت عن ذلك ، ولكن سعاد ألحت عليها بالطلب بصورة لم يسعها إلا أن تجيب ،

وركبت السيارة إلى جوار سعاد ، وكانت سعاد هي التي تسوق سيارتها دائماً ، وبعد أن سارت بهما السيارة مدة وجيزة التفتت سعاد نحوها قائلة :

– كأني قد سمعت منـك أن لدي .. لدي .. اعذريني ، أقصد لدي زوجك ، فقد نسيت اسمه .. لديه سيارة .

– لقد سافر إبراهيم في ساعة مبكرة من الصباح في مهمة مستعجلة إلى اللاذقية .

– لا بد لي أن أتعرف عليه يوماً ما يا نقاء .

– طبعاً طبعاً .

– ولكني أخشاه ..

– أنت غلطانة يا سعاد ! فهو دمث الأخـــلاق محبب إلى النفس .

– ولكنه على ما سمعت منك يا عزيزتي رجل شديـــد ، صارم ، له سلوك خاص .

– أنا لم أقل شيئاً من هذا يا سعاد ! فهو لين الجانب ، سهل العريكة ، مسالم إلى أقصى حد .

– بالنسبة لك طبعاً ، وبعد أن سخرك لآرائه وأفكاره ، أما بالنسبة لنا ـ نحن النساء العصريات ـ فلا .

– أنا لا يعجبني منك هذا التعبير يا سعاد ! إنه لم يسخرني

أبداً فأنا بطبعي أشاركه في آرائه وأفكاره .

– ما شاء الله يا لكما من زوجين سعيدين .

– واقعاً ..

– على فكرة يا عزيزتي ! هل تفكرين أن تتعلمي السياقة يوماً ما ؟

– لا ، لأنها ليست ضرورية للمرأة ، ولست في حاجة إليها.

– ولماذا ..؟

– الواقع إني لا أشعر بحاجة إلى ذلك ، فإن إبراهيم على استعداد لإيصالي إلى حيث أريـد ، ثم إني ان أركب السيارة وحدي بدونه ، فما الذي يدعوني إلى أن أقودها بدلاً عنه !

– طبعاً أنه سوف لن يسمح لك بذلك ، وسوف يكون له من هذا أحسن حجة لمتابعتك إلى حيث تذهبين، ولكنك سوف لن تستطيعي أن تتابعيه حتى إلى مكان واحد بحجة أنك مسلمة محافظة .

– ومالي وله يا سعاد ! هل ترين لي من اللائق أن أذهب معه إلى المحل أو أجلس بجواره في غرفة الحسابات ، أن هـذه أمور من اختصاصه هو وحده .

– وسهراته وحفلاته ورحلاته . و و و.. إلى آخر تحركاته وتنقلاته ؟

ـ لكل رجل رحلاته وحفلاته ، كما أن للمرأة أيضاً حفلاتها وزياراتها الخاصة .

ـ ولكن الرجل تكون له الحفلات العامة والمجالات الواسعة، أما المرأة التي على غرارك فإن لها حفلاتها الخاصة وتنقلاتها المحدودة .

ـ إن إبراهيم ليس من رواد الحفلات المختلطة والنوادي الصاخبة .

ـ أنت مخدوعة يا نقاء ! فالرجل، وأي رجل كان، لا تقف أمام تحركاته حدود أو سدود ، ولكنهم على صنفين : صنف مسالم طيب، يشرك زوجته في جميع أنواع فعالياته الاجتماعية، وقسم صارم شديد ، يستغل بساطة زوجته ليحتجزها في البيت بشتى أنواع الحجج والمبررات .

ـ إن الرجل الطيب المثالي هو الذي يشرك معه زوجته في آرائه وأفكاره وأهدافه ووحدانه لا في تحركاته وتنقلاته ، فإن للمرأة أفقاً خاصاً لا يصح للرجل أن ينزل بها عنه .

ـ مرحى مرحى لهذه النغمة الغريبة التي أصبحت تتكلمين بها يا نقاء !..

أنا لا أقرك ، أن عندي نغمة غريبة أو أي فكرة جديدة ، فأنا هكذا كنت وهكذا سأكون .

ـ طبعاً أنت هكذا كنت قبل الآن ، أيام كنت طفلة

جاهلة بأساليب الحياة ، ولكن الغريب في الأمر جمودك على هذا وأنت في هذا السن الذي يقف بك على عتبة الحياة .

ـ أرجوك يا سعاد ! أنت لا تعرفين ما تقولين .

ـ على العكس يا عزيزتي ! فأنا أعني ما أقول ، ولكن...

ـ أنا لا أحب هذا اللاكن يا سعاد ! فكأن كلساتك لها ما وراءها !

ـ صدقي أني في حيرة منك يا عزيزتي ! لا أدري كيف أتصرف ، وأنا أراك في طريقك إلى افتقاد شخصيتك، وإتلاف مستقبلك بالسير وراء أمثال هذه الفكر الرجعية ، أنت الفتاة العصرية المثقفة تلتزمين بقيود وحدود بحجة أنك مسلمة ، وأن زوجك مسلم محافظ . أفلسنا جميعاً مسلمين ؟ هل تعتقدين أن جميع هؤلاء البشر منحرفون عن الإسلام؟ أتصدقين أن إبراهيم وحده على حق وملايين البشر على باطل ؟! فكري بنفسك يا نقاء ! لترين أنك بخضوعك لإبراهيم ولأفكاره ومعتقداته سوف تخسرين الكثير !

ـ أنا لست خاضعة لإبراهيم أو غيره ، وإنما أنا سائرة وراء مبدأي وعقيدتي الشخصية .

ـ وهل أن من عقيدتك الشخصية هذه الحياة التافهة التي تحيينها ، وهذه العزلة التي فرضت عليك فرضاً ؟!

ـ أنا لست في عزلة كما تظنين ، وليست حياتي حياة تافهة

بل أنها حافلة بجميع ما تصبو إليه النفس .

ـ لأنك لا تزالين تجهلين ما تصبو إليه نفسك ، ولا تزالين تجهلين الحياة الواقعية لتصبي إليها يا نقاء! أنت لا تزالين صغيرة، ولذلك فقد تمكن إبراهيم من تضليلك ...

ـ أنا لا أجهل شيئاً من الحياة ، وإني واثقة من صواب نهجي الذي أنا عليه، وإن عقيدتي هذه سوف تحقق لي ولزوجي السعادة الكاملة في كل حال من الأحوال ... أنا لست متعطشة للاندماج في مجتمع متحلل فاسد .. فإن لي مجتمعي الخاص الذي أنعم فيه بالعلاقات البريئة والمصاحبات الطاهرة النقية ... أنا لست جاهلة يا سعاد ! ولكنني أعني ما أقول وأقصد ما أعمل ولست في حاجة إلى أي نصيحة أو إرشاد ...

وضحكت سعاد طويلاً ، ثم أردفت قائلة :

عفوك يا آنسة ! أنا لم أكن أقصد إثارتك من قريب أو بعيد ، أما الآن وقد ثرت ... ولا أدري لماذا ؟!.. فأنا أستميحك العذر ..

ثم أدارت وجهها ناحية نقاء ، وحاولت أن تركز نظراتها في وجهها لتقرأ على صفحته السبب في انفعالها ، فقد خيل لها ، أن سهماً من سهامها قد أصاب هدفاً في قلب نقاء ، فاندفعت تنفس عن مشاعرها بهذه الثورة بدون إحساس منها لذلك ، ولكن نقاء أدارت وجهها ناحية الشارع ، وقالت :

أنا لم أثر يا سعاد ! ولكن تأثرت فقط .

ـ الويل لي إذا كنت قد آذيتك يا عزيزتي ! أنا لن أغفر لنفسي هذا مطلقاً ، فأنا أعتبر نفسي أختاً ناصحة ، ولا أقصد مما قلت سوى صلاحك وصلاح مستقبلك الذي يهمني كثيراً !! فقد كنت واثقة دائماً من أنك سوف تتربعين على عرش المجتمع وأنك سوف تدخلين الحياة لترين جميع أبوابها مفتوحة أمامك واسعة ، ولكن الآن وقد تلاشت جميع آمالي بالنسبة لك ، وهذا هو ما دعاني إلى الإندفاع إلى مصارحتك ببعض الحقائق .. ومرة أخرى أستميحك العذر .

ـ أنت معذورة يا سعاد .. !

ـ أهكذا .. وبمثل هذه اللهجة يا نقاء .. !

ـ نعم ، فلا يسعني أن أقول شيئاً غير هذا !

ـ كما تريدين يا عزيزتي ! فلست إلا ناصحة ، والآن وقد وصلنا ، فمتى تريدين أن أمر عليك لأرجعك إلى البيت ؟

ـ شكراً يا سعاد ! سوف أرجع وحدي ...

ـ أبداً، إن هذا محال ، لن أدعك تنتظرين « الأمانة » على قارعة الطريق وعندي سيارة ، سوف أرجع بعد ساعة لآخذك إلى البيت .

ولم ترد عليها نقاء رداً واضحاً ، ولكنها بعد أن أتمت عمل القياسات ركبت « الأمانة » ورجعت إلى البيت دون أن تنتظر

سعاد، وكانت تعلم أن ذلك سوف يغيظها ، ولكن لا يهم ، فهي تود أن تبعد سعاد عن طريقها بأي صورة كانت .

وفي العصر كانت نقاء جالسة أمـــام مكتبتها تصلح من ترتيبها ، فشعرت أن باب غرفتهـا يتحرك ، فاستدارت لترى سعاد فارتكبت وظنت أن سعاد جاءت عـــاتبة ، ونهضت لاستقبالها ، وقد صممت على أن تصارحهـا بالحقيقة أن عتبت عليها ، لعدم انتظارها لها عند الخياطة ، ولكنهـــا فوجئت بسعاد تقول :

ـ أنا خجلانة جداً يا نقاء . . ! فقد كانت غلطة لا بد أن تغفريها لي ، أنا لم أكن أقصد التأخر، ولكني تأخرت، وسبب ذلك عودتك وحدك .

واحتارت نقاء ... بماذا ترد على سعاد ، ولم تتمكن أن تقابل تسامحها هذا بالتجني ، فلم يسعها إلا أن تقول :

ـ لا عليك يا سعاد ! فأنا لم أنتظر طويلاً كما تظنين ، والآن تفضلي واجلسي يا سعاد !

وجلست سعاد على كرسي هنـــاك ، وشرعت تتكلم ... تكلمت عن الحفلة التي دعيت إليها في الليلة الماضية ، والمطربة التي أحيتها حتى مطلع الفجر ، والفتيات المخدوعات اللواتي كن يتطايرن في سمائها ... وتحدثت عن الأفـلام الأجنبية التي تعرض في دور السينما ، وفصولها المثيرة الخلابـة وتحدثت عن رحلات الصيد التي تقوم بها مع ثلة من أصحابهـا في كثير من

الأوقات ، ثم تحدثت أخيراً عن أحواض السباحـــة والمسبح الجديد . وعلى الجملة: فقد تحدثت عن كل شيء أرادت أن تتحدث به ، ونقاء ، تستمع إليها بهدوء واتزان لا تكاد تعلق على كلامها إلا بالنزر القليل . واستغربت نقاء تجاهل سعاد لذكر زوجها في جميع أحاديثها ، وإهما لوجوده في جميع تصرفاتها ، فاغتنمت فرصة قصيرة سكتت خلالها سعاد لتسألها قائلة :

ـ وزوجك يا سعاد ! أراك تتجاهلـــين وجوده في سجل حياتك الحافل ؟!

وودت سعاد لو تتمكن أن تصرخ بنقاء ، قائلة : مالـــك ولزوجي يا بنت ... فقد ظنت أن نقاء تتحداها بهذا السؤال ، فإن شخصية زوجها التافهة كانت نقطة ضعف بالنسبة إليها على طول الخط ، ولكنها سرعان ما تذكرت أن عليها أن لا تغضب نقاء ، وأن عليها أن تداهنهـــا حتى تتمكن من الوصول إلى غاياتها الانتقامية ، فتمالكت نفسها ، وأجابت ضاحكة :

ـ أنا زوجة حرة يا نقاء ! لا أقرن حياتي بحيـــاة زوجي مطلقاً، ولا أسايره إلا في الحفلات العامة التي ندعي إليها سوياً، نحن نقول بمبدأ المساواة بين المرأة والرجل .

ـ عجيب أمرك يا سعاد! منذ ساعة كنت تدعين إلى مرافقة المرأة زوجها ومسايرته إلى حيث ذهب ، والآن تقولين أنك حرة ، لك عالمك المستقل !!

– انت لم تنتبهي إلى ما أعنيه يا نقاء ! فأنا أساير زوجي وأتابعه ، ولكن لا أسمح له أن يسايرني ويتابعني إلى كل مكان أذهب إليه ، فأنا واثقـــة من نفسي ، ولكني لست واثقة من زوجي ، فالمرأة الذكية ينبغي أن لا تثق بزوجها مهما داجاها وداهنها ، وأن لا تترك له الحرية الكاملة للتلاعب من ورائها .

وسكتت نقاء برهة وهي تعجب لهذا المنطق ! ثم قالت :

– هل تحبين زوجك يا سعاد ؟

وارتبكت سعاد وترددت لحظة ثم أجابت :

– طبعاً .. طبعاً .. فهو رجل ممتاز ، وسوف أعرفك عليه في أقرب فرصة ، أنـــه شاب رائع ... ولعلني سوف أصحبه لزيارتك في أحد الأيام .

– عفواً يا سعاد .! فأنا لا أستقبل ضيوفاً من الرجـــال بمفردي وبدون إبراهيم .

– حقاً لقد نسيت إبراهيم ، هـــذا الذي يقف حائلاً دون كل شيء ...

– سعاد .. لا تنسي أنه زوجي قبل كل شيء ، ثم إني أحبه جداً ، ولا أسمح لك أن تنالي منه شيئاً .

– ليتني كنت موجودة قبل عقد قرانك يا نقاء .. !

– ولماذا يا سعاد ؟!

– كنت أحول بينك وبين هذا المصير ...

– إذن لكنت قد تسببت في حرماني من السعادة في الحياة.. !

– أنت تكابرين يا نقاء .. ! وهذه هي غلطتك منذ اليوم الأول إذ وافقت على إتمام العقد قبل أن تتعرفي على سلوكه وطباعه ...

– لم تزدني المعرفة إلا ثقة فيه وإعجاباً به ، ثم إني لا أكابر وليس هناك أي داع للمكابرة يا سعاد ! أنا رضيت بإبراهيم زوجاً بكامل حريتي ، وقد كنت أتمكن أن أرفضه لو شئت ، ولكني رضيت ولم أندم على ذلك يوماً ما، ولن أندم عليه طول الحياة . أنت تظنين أنه بإمكان الفتاة المخطوبة إن تتعرف على شخصية خطيبها الواقعية أيام الخطوبة .. أن كلا من الطرفين سوف يسلكان سلوكاً تحفظياً رسمياً ما داما خطيبين ، وسوف لن تتكشف طباعهما وسلوكهما لبعضهما إلا بعد الزواج، فالرجل مهما حمل من أخطاء وعانى من نقاط ضعف ، فهو يتمكن أن يخفيها عن عروسه إلى مدة من الزمان حتى لا يخسرها قبل الزواج، وكذلك المرأة أيضاً ، وعلى هـــذا فإن أيام الخطوبة لا تزيد الخطيبين إلا غموضاً وتعقيداً فقد تبدو من الرجل بعض خصاله غير المحمودة أمام امرأة غريبة بدون قصد منه ، ولكنه بالنسبة لخطيبته سوف يتعمد أن لا تبدر منه إلا النواحي الحسنة .

– ولكن المجتمع يرى غير رأيك يا نقاء ! أنت الوحيدة التي تفكرين على هذا النحو من التفكير .

ـ أنت تقصدين بالمجتمع، مجتمعك أنت يا سعاد ! أما المجتمع الذي أعيشه فأفكاره أفكاري وما أنا إلا واحدة من ملايين يرون هذا ويسيرون عليه .

ـ ومالي أرى لملايينك هؤلاء أثراً ولا أسمع لهم خبراً ؟!

ـ أنت ترينهم وتسمعينهم يا سعاد ! ولكنك تأبين أن تصدقي عينيك ، وتستنكرين ما تسمعه أذناك ، أنهم ملء السمع والبصر ، ولكن الظلام الذي يكتنف أبصار المنحرفين يحجبهم عنهم إلى حين .

ـ إستمري يا نقاء ! فأنا يلذ لي كثيراً أن أسمعك وأنت ترجعين أمثال هذه الكلمات الرنانة ، فلم يعد يعوزك يا عزيزتي إلا محراب تصلين فيه الليل والنهار وترتلين فيه الأدعية والأوراد !..

ـ أنت غلطانة يا سعاد ! فإن البون شاسع جداً بين ما أقوله وبين أن أعتكف في محرابي أصلي وأصوم ، أنا ملء الحياة يا سعاد ، والحياة كلها لي أيضاً ، ولكن الحياة الطاهرة النقية والحياة المثلى .

ـ أراك أصبحت ترددين كلمات العجائز من جاراتك يا نقاء ! أهكذا وبهذه السرعة تتلاشى منك روح الشباب الوثابة وحرارة الفتوة الطليقة ، أسفي عليك يا نقاء ! فأنا دائماً وأبداً كنت أتنبأ لك بمستقبل باهر لما أنت عليه من جمال وسحر ، وطالما

قلت لمحمود زوجي ، أن ابنة خالتي هي أجمل فتيات عصرها ، ولهذا فهو يتحرق شوقاً للتعرف عليك وإذا بك الآن وأنت لا تتكلمين إلا بالمثل ، ولا تتحدثين إلا بالمواعظ والحكم .

ـ أنا لم أفه بموعظة واحدة أو آتي بحكمة قصيرة ، وإنما كنت أتكلم عن واقع الحياة ، والواقع بدون رتوش .

ـ لله در إبراهيم الذي تمكن من تلقينك هذه العبارات !

ـ سعاد ! أرجوك أن لا تعودي إلى المس من إبراهيم ، فهذا ما لن أرضاه أبداً ... ليتك كنت وعيت مفاهيمه لتعرفي أي نمط هو من الرجال ... نعم ليتك تتعرفين عليه .

وارتبكت سعاد وعلت وجهها صفرة باهتة ، ثم تمالكت نفسها وقالت :

ـ طبعاً سوف أتعرف يوماً ما ، ولكن ليس الآن .

ـ ولماذا يا سعاد ؟!.. أنا واثقة من انك لو رأيته مرة واحدةٍ لغيرت رأيك فيه ، ولأعجبك كثيراً !.. نعم كثيراً .

وبذلت سعاد جهداً جباراً وهي تحاول أن تبدو طبيعية ثم قالت في تهكم :

ـ أنا لا يرضيني الرجل الذي يكون على غرار إبراهيم ، مهما كان وأياً كان .

قالت سعاد ذلك وهي تعلم أنها تكذب ، فهي لم يحلو لها رجل غير إبراهيم ، ولم يسحرها شاب سواه ...

وضحكت نقاء ضحكة قصيرة هادئة ، ثم قالت :

ـ ومن يدري فلعلك رأيتيه من قبل ولم تعرفيه ، أو ، لعلك سوف ترينه بعد الآن فـلا تعرفينه ، انظري يا سعاد .. ! هي ذي صورته معلقة على الجدار ، انظريه جيداً لتتعرفي عليه إذا اتفق ورأيتيه .

وارتبكت سعاد .. فهي لا تريد أن تنظر إلى صورة إبراهيم بمرأى ومشهد من نقاء ، لكيلا يبدو عليها ما يريب ، فهي لم تكن على ثقة من أن عوامل النقمة والانتقام سوف لن تنطبع على وجهها ،.. وهي ترى صورته تحتل الصدارة في غرفة نقاء ، في الوقت الذي حرمت هي منه حتى من أن تلقي عليه نظرة واحدة. أنها لم تعد تحب إبراهيم فقد استحال حبها إلى حقد أسود ... وتبدلت عواطفها نحوه إلى شواظ من نار ، تحاول أن تحرق بها إبراهيم وزوجته والمثل التي يؤمن بها ... ولذلك فلم ترفع رأسها نحو الصورة ، ولكن نقاء كررت عليها وهي تشير إلى الصورة قائلة :

ـ انظريه بالله عليك يا سعاد ! هل يمكن لصاحب هذه الصورة أن يكون رجلاً مداجياً أو ظالماً لأحد ؟.. أو هـل يستحق هذا الشخص العزيز هجماتك الظالمة ؟ ! انظريه ... يا سعاد لتري صدق ما أقول ..

وكانت سعاد تعلم أنها صادقة فهي تعرف إبراهيم حق المعرفة

وتعلم أنه بريء من كل ما تسعى لأن تنسبه إليه، ولم يسعها إلا أن ترفع بصرها نحو الصورة ، وألقت نحوهـــا نظرة عابرة ، ثم قالت :

ـ لا يبعد أن أكون قد رأيته مرة أو مرتين في إحـــدى الحفلات الليلية ..

ـ أنا لا يهمني ما تقولـــين ، ولكن الذي يهمني أن تفهمي يا سعاد إني أحترم صاحب هذه! الصورة، وهو زوجي أمام الله وأمام الناس ، وأنا فخورة به جداً ، ولا أرضى لأحد أن يمسه بسوء أو ينال منه بكلام ... نعم .. أنا فخورة به جداً .

وكانت كلمات نقاء تلذع فؤاد سعاد كجمرات من نار ، ولم تكن نقاء تعلم ذلك أو تحتمله أيضاً .

ـ أدام الله لك سعادتك هذه يا نقاء ! فأنا بصفتي زوجـة أقدر السعادة الزوجية ، وأدعو لكل زوجة بالنجاح فيها .

وساد الغرفة سكوت دام دقائق نهضت بعده سعاد واستأذنت بالإنصراف ، ولم تشأ نقاء أن تستبقيها أكثر ، وودعتها بفتور ، ثم عرجت على غرفة أمها وجلست تسامرها حتى قـدم أبوها ، فتناولوا عشاءهم ، وانصرفت نقـاء بعده إلى غرفتها ، وكانت تشعر بوحشة لغياب إبراهيم ، وافتقدت قدومه في الموعد المحدد من كل يوم ، وكانت تحس بضيق شديـــد على أثر سماع كلمات

سعاد ، وهي تود لو أنها لم تكن ضيقتها ، لتتمكن أن تكون معها أكثر صراحة وأن تبدي لها رأيها فيها وفي سلوكها كما أبدت سعاد رأيها في سلوكها هي ... ولكنها كانت مسالمة .. وكان من العسير عليها أن تجابه بنت خالتها وهي في ضيافتها بكلام شديد أو تكلمها بلهجة صارمة .. وأرقت تلك الليلة وهي تفكر في مفاهيم سعاد الخاطئة ، وتسعى لإيجاد طريقة لإصلاح هذه المفاهيم وتوجيهها توجيهاً صحيحاً .

الفصل الخامس

دخلت سعاد غرفتها وهي تشعر بانهيار شديد، فهي تخشى أن تكون نقاء قد لاحظت عليها شيئاً من ارتباك، أو قرأت على ملامحها ما كان يعتلج في صدرها من انفعالات وهي تتردد في النظر إلى صورة إبراهيم، ثم وهي تنظرها أخيراً ...

وألقت بنفسها على السرير، وأطلقت لفكرها العنان، فكرت في أنها غامرت بذهابها إلى نقاء ... فماذا لو كان إبراهيم قد رجع من سفرته القصيرة ؟ وماذا لو كان قد صادفها هناك ؟ أو ماذا لو كانت نقاء قد لاحظت عليها ما يريب ؟ وذلك يعني أنها لا تتمكن أن تحقق غايتها في الانتقام على الوجه الذي تريد، فهي قد سحقت كبرياءها ولم تظهر الغيظ من عودة نقاء وعدم انتظارها عند الخياطة مع أنها لم تتأخر كثيراً، لكي لا تخاصم نقاء، والخصام معها يعني ابتعادها عنها، وهي

لا تريد أن تبتعد عنها في هذه الظروف، حتى تنتهي من مؤامراتها الانتقامية، فهي لا تريد أن تترك نقاء إلا بعد أن تسمم ذهنها بالأفكار التي تعتنقها هي، والتي تعلم واثقة أنها أفكار ضالة موبوءة لا تجلب لصاحبها غير الخسران والحرمان، كانت تريد أن تلقي بينها نفس السد الذي حال بينها وبين إبراهيم. وأرقت ليلتها وهي تفكر .. ولم تخرج في تلك الليلة على خلاف عادتها في باقي الليالي، وأفاقت في الصباح فاستحمت وارتدت ملابسها، ثم استدعت خادمتها الخاصة سنية، وجاءت سنية وهي امرأة شابة لا تتجاوز العقد الثالث من عمرها، ولا تخلو من لمحة جمال، وكانت المساحيق والأدهان تعلو وجهها بوفرة، وقد صففت شعرها على أحدث طريقة، فحيت سيدتها ووقفت تنتظر، فصعدت سعاد نظرها فيها وتأملت أناقتها، ثم سألتها :

ـ هل إتصل بي أحد في التلفون يا سنية ؟!

ـ إن سيدي لم يخرج لحد الآن، ولذلك فهو يرد على كل نداء

ـ وأمس عصراً حينما لم أكن في البيت ألم يطلبني أحد ؟

ـ كان سيدي في غرفته وكان التلفون معه أيضاً ؟

ـ أو لم يخرج سيدك أمس أيضاً ؟

ـ لا ...

ـ وليلاً يا سنية هل خرج سيدك ؟

ـ لا، لم يخرج مطلقاً .

ـ لعله مريض ...

ـ لا أدري .

ـ أو لم يزره أحد يا سنية ؟

ـ أبداً .

ـ هل أنت علىٰ يقين من ذلك ؟

ـ ثقي يا سيدتي إني لا أتجسس على سيدي مطلقاً .

ـ ومتى كلفتك أن تتجسسي عليه ... انصرفي الآن .

واستدارت سنية لتخرج ، ولكن سعاد استوقفتها قائلة :

ـ سنية ... ! أنا لا أحب منك هذا الإفراط في الأناقة ... إن من يراك يظن أنك في حفلة ساهرة ، اذهبي وصففي شعرك بطريقة أقل إثارة ، وخففي من مكياجك الصارخ ...

ـ ولمـــاذا يا سيدتي ؟! أولست حرة بالتصرف في شعري ووجهي .

ـ هل رأيت قبل الآن من تعمل تسريحة كتسريحتك هذه ؟ وتعمل مكياجاً صارخاً مثل هذا المكياج في الصبح وفي رابعة النهار ؟

ـ إنك ـ أنت ـ يا سيدتي تذهبين كل صباح إلى محـلات التجميل قبل أن تبدأي جولتك النهارية !!

ـ أنا سيدة متزوجة والمجتمع يحتم علي ذلك .

ـ لم يتفق لسيدي أن رآك مرة وأنت على زينتك يا سيدتي إلا في بعض الحفلات ، فهو لا يصل إليك إلا بعد أن تكوني قد أنهكك التعب وأعيتك الأناقة . . !

ـ أنت لا تفهمين ما تقولين يا سنية ! كيف تجرئـين على مخاطبتي بهذه اللهجة ؟! هل أنت سوى مجرد خادمـة يمكنني طردك في كل ساعة ؟!

ـ أحقاً أنك تستطيعين طردي في أي ساعة يا سيدتي ؟!

ـ نعم أولست سيدة البيت ؟.

ـ فلماذا لا تطردينني إذن يا سيدتي ؟!

ـ انت تغيظينني كثيراً يا سنية !

ـ ابداً لا اتعمد إغاظتك يا سيدتي ! ولكن اقول انك تستطيعين ان تطرديني بسهولة .

ـ أغربي عن وجهي يا سنية ! كفاك هذراً ووقاحة ، فأنا لا استطيع أن أنظر إليك اكثر من هذا .

ـ أنت مخيرة في ذلك ، ولكن أنا أحرص دائماً أن أنظر إليك كما نظرت من قبل . ورانت على وجه سعاد صفرة باهتة ، وقدحت عيناها بشرر مخيف ، ولكنها جاهـدت نفسها لكي لا تصفع هذه الماثلة امامها بكل صفاقة ، والمتحدية لها بأسلوب لاذع ، فهي كانت تعلم أنهـا مشدودة إلى سنية بحبل شائك لا فكاك لها منه ولا خلاص ، ولذلك فقد حاولت أن تسيطر

على اعصابها ورققت صوتها وأجابت قائلة : انت تعلمين انك أثيرة لدي يا سنية ، ولكني اليوم ضيقة الصدر ، واردت ان انفس عني قليلاً .

ـ أنا على ثقة من ذلك يا سيدتي ! ولكن اردت ان انبهك إلى بعض الظروف فقط ، والآن هل تسمحين لي بالانصراف ؟

ـ طبعاً طبعاً فقد أخرتك كثيراً يا سنية ! وخرجت سنية وهي تتمايل في مشيتها وتتهادى وتابعتها سعاد بعينين تقدحان شرراً وحقداً ، وتمتمت قائلة : يا لها من أفعى سامة تستغل ما تعلمه عني لإهانتي والتنكيل بي ، ولكني جبانة فما الذي أخشاه منها ؟ وماذا عساها أن تقول ! وأي فضيحة سوف تعلنها لو طردتها شر طردة ! لماذا أخاف ! وأي شيء أخشى ، والمجتمع الذي أعيشه يؤكد على إعطاء الحرية الكاملة للمرأة ، وأن المرأة والرجل متساويان في إستعمال حريتها العامة ؟!.. نعم ، لماذا أخاف سنية ! وعند من تنوي أن تفضحني ! وجميع من حولي قد أثقلت كواهلهم الآثام ، وزخرت حياتهم بالخطايا والزلات ، نعم لست أخشى أحداً غير محمود ، فهو لا يزال يجهل واقعي الذي أعيشه ، وقد دفعته إلى ما يلهيه عن كل شيء ، وسنية قادرة على إثارته لو أرادت ، ومحمود يعني عندي الشيء الكثير ، فهو الثراء والغنى ، وهو المال الذي يخضع له كل شيء ، ولا يقف أمامه شيء ، ولذلك فإن عليّ أن أوطن نفسي على تحمل هذه العقرب اللعينة ، إنها تتحداني بكلماتها ، وقد عرفت ما كانت

تعنيه ، ولم يعتكف محمود في البيت إلا لأجلهـــا ، وهي كانت تحاول أن تفهمني ذلك بكل صفاقة ، ولكني مشدودة إليها على كل حال ، ليتني كنت قد صرفتها من البيت مع سفر محمود ، إنها كانت غلطتي في الواقع ، ولكنها إنتهت على كل حـال ، والآن فإن عليّ أن أذهب إلى غرفة محمود ..

ونهضت متثاقلة ، والتفت بردائها الحريري . وذهبت إلى غرفة محمود ، ولم تشأ أن تطرق عليه الباب ، فقد أرادت أن تفاجئه لترى الحالة التي هو عليها، ففتحت باب الغرفة، وتطلعت إلى الداخل لترى محمود جالساً يستمع إلى أنغام الموسيقى ، وهو في كال حيويته ونشاطه ، فدخلت إلى الغرفـــة وهي تقول : ما شاء الله كنت أظنك مريضاً يا محمود ! ولكنك في أتم صحة والحمد لله ، وابتسم محمود ابتسامة تهكمية ، ثم قال : أنا اليوم على أحسن حال يا سعاد .. ! فما الذي أوحى إليك إني مريض ؟.

ـ عدم خروجك من البيت اليوم وأمس ، على خلاف عادتك في باقي الأيام !

ـ وما يدريك يا عزيزتي بأني كنت أخرج في كل يوم ، فأنت تخرجين قبل كل خارج وتعودين بعد كل عائد . !

ـ وهل من المعقول أن تقضي أيامك كلها في البيت ؟.

ـ إن الليالي تكفيني يا سعاد .

ـ أنت تتحداني بكلامك هذا يا محمود !.

ـ أبداً يا عزيزتي ، ولكني منذ أيام أشعر برغبة ملحة للبقاء في البيت .

ـ وبأي شيء تقضي أوقاتك يا محمود ؟

ـ أطالع الكتب وأستمع إلى الأخبار .

ـ عظيم ، متى أصبحت هكذا يا عزيزي؟ بل أين لك الكتب التي تطالعها؟ وهل هناك خبر عالمي يهتم به شحصك الكريم ؟!.

ـ أنت تتجنين عليّ يا عزيزتي ! فأنا لست من الغباء بالمقدار الذي تظنين .

ـ الآن صارحني بالحقيقة يا محمود ، ما الذي قعد بك أمس عن الخروج ؟.

ـ لقد قلت لك يا عزيزتي! إني منذ أيام لم أخرج طول النهار من البيت غالباً ..

ـ ولماذا ؟!.

ـ لديّ شؤون مهمة يتحتم عليّ قضاؤها هنا يا سعاد ؟

ـ وهل أن شؤونك المهمة مقصور قضاؤها على البيت ؟.

ـ نعم نعم بالضبط .

ـ أتعلم يا محمود بأنك تغيظني كثيراً . !

ـ ولماذا يا سعاد ؟ هل أن بقائي في البيت يغيظك إلى هذا الحد ؟!.

ـ طبعاً، فأنا أفهم ما تعنيه من بقائك في البيت هذه الأيام ، ولكن أريد منك أن تكون صريحاً على طول الخط ..

ـ وهل كنت صريحة معي عندما امتنعت من السفر برفقتي إلى حلب في الشهر الماضي ؟.

وهل قدمت لي حجة معقولة تقضي بتخلفك عني في دمشق وبقاؤك وحدك هنا لمدة أسبوع ؟.

وتجهم وجه سعاد وهي تستمع إلى زوجها يتحدث ، ثم قالت : أنت تنتقم مني إذن يا محمود .؟

ـ وهل كان موقفك ذاك حركة عدائية لكي تعتبريني في دور الانتقام ؟ لا ، أنا لا أنتقم ولكني هكذا كنت ، وهكذا سأكون .. أخرج متى يحلو لي ، وأبقى في البيت متى أريد ، إنه بيتي أنا يا سعاد ! لعلك نسيت ذلك .

ـ ولكن سنية وصيفتي أنا يا محمود ..

ـ ولكن راتبها مني يا سعاد ! وأنا سيدها الواقعي .

ـ أنا أتمكن أن أطردها وأحرمك منها متى أشاء ..

ـ أبداً أنت لن تفعلي ذلك ، وأنت تعلمين ذلك جيداً .

ـ ماذا تقصد يا محمود ؟

ـ لا شيء لا شيء مطلقاً .. فقط إني أقصد أن نضع بيننا هدنة .

ـ آه أتساوم يا محمود .!

ـ لك أن تسميها ما شئت يا عزيزتي ! مساومة ، هدنـة ، تعادل قوى ، فرص متكافئـة ، أنت حرة في التسمية كما أنت حرة في كل شيء .

ـ أنت تسحق أعصابي سحقاً يا محمود ..!

ـ وأعصابي يا سعاد ؟!.

ـ إنها من حديد ..

ـ ولكنك تتمكنين أن تحطمي الحديد يا سعاد !.

ـ هل حقاً أنا قوية إلى هذا الحد ؟!

ـ وأكثر بكثير ..

ـ إذن فنحن متكافئان ..

ـ لا بل أنك أنت المتقدمة في الصراع، فما أنا إلا نتاجيديك في هذا المضمار .

ـ من دواعي فخري أن أكون كذلك .

ـ فافتخري إذن يا سعاد ! والآن أي ريح طيبة دفعتك إلى غرفتي يا عزيزتي ؟.

أنا لا أصدق أن الحب ساقك إليّ فهل أنت في حاجـة إلى مال ؟ أنت لم تدخلي غرفتي منذ زمن طويـــل ، فاشرحي لي الأسباب التي دعتك إلى هذه الزيارة .

وهنا أردفت سعاد في دلال قائلة : غير المرغوب فيها طبعاً.

ـ بل الزيارة التي تقت إليها كثيراً .

ـ هل أنك لا تزال ترغب في زيارتي يا محمود ؟

ـ أوتشكين في ذلك يا سعاد ! إن حبي لك هو الذي حملني على الصبر عليك طيلة هذه المدة على أمل أن تمني عليَّ بنظرة ، أو تعطفي بلفتة ، وأنا أصارحك ! أني تعيس بهذا الحب،ولست سعيداً به أبداً ، ولكني أحبـــك يا سعاد ، ولا أطيق عنك فكاكاً، وشعرت سعاد أن عليها أن تلبس لبوس الرقة والدماثة، وأن تحاول أن تستبقي مكانتها في قلب محمود ، وإن كانت تزدريه وتنفر منه ، ولكن سلطان المال كان عندها أقوى من كل عاطفة ، وقد حطمت الحضارة الكاذبة كبرياءها وجردتها من عزتها الأنثوية ، ولذلك فقـــد صممت على أن تسعى لإستمرار سيطرتها على محمود ، وإن كانت غريمتها الحالية خادمتها سنية ، فهي لا تستطيـع أن تعيش يوماً واحداً بـدون أموال محمود ، فطبعت على وجهها ابتسامتها الكاذبة التي كانت تتمكن أن تطبعها حيث تريد ولمن تريد .

رققت صوتها ، وأسبغت عليه نغمة عذبة حنوناً ، وقالت في دلال : أنت تظلمني يا محمود ! فإن عندي من الحب أضعاف ما عندك يا عزيزي ، ولكن مشاغل الحياة هي التي تحول بيني وبين الارتواء من معين حبك الغالي ... وأسكرت هذه النغمة محمود ، وأنسته جميع خيانات زوجته ، وآنسته أيضاً رفيقاته

وصديقاته وسنية وغيرها من النساء ، ولم يعد يشعر إلا بسعاد وهي تكلمه بنغمة طال به الشوق إليها وعادت به هذه الكلمات إلى أيام خطوبته منها وقت أن كانت تسكب في أذنيه أعذب آيات الغرام ، ففتح ذراعيه لها وهو يقول :

أنا لا أزال رهن هواك يا سعاد ! فلا غنى لي في حياتي عنك أبداً ، وجاهدت سعاد كثيراً قبل أن تستجيب لذراعيه ، وهي تشعر بحالة تقزز ونفور ، ولكن هو المال والثروة قد ذهبا بعزتها لأنها تعبد المال وتتغنى بالثروة ..

الفصل السادس

عاد إبراهيم من اللاذقية بعد غيبة طالت يومين ، وسارع للذهاب إلى نقاء ، وكانت نقاء تنتظر عودته بفارغ الصبر ، وسارعت إلى استقباله في الباب ، وكل ذرة في كيانها ينطق بالشوق والحب ..

وبادرته بعد أن استقر بهما الجلوس قائلة :

ـ لقد أوحشتني كثيراً يا إبراهيم .

ـ وأنا كذلك يا عزيزة الروح ، فقد انقضى عليّ اليومان المنصرمان وكأنهما عامان كانت دقائقهما كأسابيع وساعاتهما كشهور .

ـ وشعرت بفراغ كبير لبعدك يا إبراهيم .

ـ ولكنني لم أفرغ منك لحظة لأشعر بالفراغ فقد كنت معي دائماً ..

ـ إن قربك أصبح ضرورة من ضرورات حياتي ، واساساً

من اسس كياني يا إبراهيم .

- أما أنت فقد غدوت لي حياتي كلها ، فأنت لي كل شيء ولا شيء عندي غيرك يا نقاء ! فـأنا أحب حياتي ووجودي لأجلك لأنه سوف يكون وقفاً عليك يا نقاء... ! إذن فأنت لي كل شيء ولا شيء عندي غيرك ...

كانت نقاء تسبح في آفاق السعادة وهي تستمع إلى كلمات إبراهيم وصوته الحنون ... واستمر إبراهيم يقول :

- نعم يا نقاء ! أنت بالنسبة لي الحياة الواقعية التي تزخر بالسعادة وتعمر بالهناء ، وقد فتشت طويلاً قبل ان اهتدي إليك لأجد فيك ضالتي المنشودة وأملي الكبير.. لهذا فأنا سعيد بك.. ومفرط في السعادة .

- وأنا كذلك يا إبراهيم ، ولكن أخشى على سعادتنا هذه من أن تمسها يد الدهر الخؤون ، أو أن تنال منها حوادث الزمن الغادر ، بودي لو كنت أطمئن إلى خلود سعادتنا مدى الحياة.. نعم ، بودي لو أطمئن ..

- أنا مطمئن .. فاطمئني يا نقـاء ! فالسعادة الحقيقية لا تمحو سطورها الأقدار ، ولا تنالها يد البلى ، فسعادتنا تنبع عن الحب والإخلاص . وسعادة يكون رصيدهـا حباً طاهراً وإخلاصاً واقعياً لا يمكن لأي عامل من عوامل الدهر ان ينالها

بسوء .. بماذا أنت سعيدة يا نقاء ؟

– بك أنت وحدك يا إبراهيم .. بروحك الطـــاهرة .. بسلوكك المهذب .. بقلبـــك الكبير .. بعواطفك الخيرة .. بصوتك الحنون .. نعم ، بك أنت وحدك يا إبراهيم !

– وكذلك أنا يا نقاء .. سعيد بـك يا عزيزتي .. بصفاء روحك ونبل عواطفك ... بصدق حبك ووداك .. بثبات فكرك وروحياتك .. بالروعة الملائكية التي تشع بهالة من نور حول وجهك الرائع القسمات .. وعلى هذا ، فإن سعادتنا لن تزول ولن تحول أبد الدهر ، إن السعادة التي تتلاشى وتضمحل نتيجة لتعاقب الحوادث والأيام ليست سعادة واقعية ، إنهـــا سعادة موهومة قائمة على أسس مادية مزيفة ، والمادة لا بد أن تزول ، ولكن الروح ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، فالسعادة التي يكون قوامها مادة أرضية ، مثل المال او الجاه او الجمال ليست سعادة ، ولا حتى شبه سعادة ، وإنما هي شبه سكرة قصيرة على أحلام الغنى والجمال ، والسكرة لا تدوم طويلاً ، والغفوة يعقبها صحو طويل . تلك هي السعادة التي يخشى من زوالهـا ، وتلك هي السعادة التي تضل من يجري وراءها ، وتخدع من يركن إليها في الحياة ، أما سعادتنا يا نقاء ! فهي سعادة خالدة خلود الروح ، راسخة رسوخ النفوس في الأجسام .. فاطمئني يا عزيزتي ، فليست حياتنا الزوجية المقبلة سوى مثال رائع للحياة الزوجية

السعيدة الهانئة ، فما دامت أرواحنا متحدة ، وقلوبنا متقاربة ، وأفكارنا منسجمة متماثلة ، سنكون في منجاة من أي خطر يهدد سعادتنا المتوخاة . فإن أهم عوامـل هدم السعادة الزوجية هو تباين الآراء وإختلاف النظرة في الحياة .

وشاعت السعادة على وجه نقاء وهي تستمع إلى إبراهيم ، وودت لو إستمر يتكلم واستمرت هي تستمع إلى ما لا نهاية .

الفصل السابع

تألقت الأنوار في بيت سعاد ، وهو يستقبل ثلة من الأصدقاء الخصوصيين للزوجين ، وقد وجهت الدعوة إليهم بمناسبة عيد ميلاد محمود ، وكانت سعاد تتألق في حلة زرقاء داكنة ، وقد زينت صدرها وجيدها وساعدها بالحلي ، وبدت رائعة الجمال بالغة الأناقة . وبدأ الضيوف يتوافدون على الدار ، وكان من مقدمتهم المصور صلاح ، وهو شاب كان من المعروف أنه على علاقة جديدة مع سعاد ... بعد أن قبذت صاحبها الممثل سليم . واختار صلاح لنفسه مجلساً قريباً من سعاد ، وكانت سعاد مشغولة في استقبال المدعوين ، وتوزيع الابتسامات والمداعبات. وكان من جملة المدعوين شاب يعمل مهندساً ، وقد تعرفت عليه سعاد منذ مدة وجيزة ، وشاءت أن تلقى حوله أحابيلها ، فدعته إلى هذه الحفلة مع الأصدقاء الخصوصيين ، وقد جاء هذا

المهندس بصحبة واحــــد من أخص أصدقاء محمود اسمه سعيد ، وكانت سعاد تنتقل بين الضيوف ، حتى اختارت لها مجلسا إلى جوار المهندس الشاب ، وشاعت الغبطة في قلب المهندس، وهو يرى سعاد تجلس الى جواره ، وانتظــــرته سعاد لكي يتكلم ، ولكن المسكين كان يشعر بارتباك إلى درجة لم تمكنه من الكلام ولكن سعيداً بدأ الحديث فخاطب سعاد قائلاً :

ـ تصوري يا ست سعاد أن صديقي هذا كان يخشى من المجيء إلى هنا .

واتسعت حدقتا سعاد وهي تتظاهر باللهفة قائلة :

ـ آه !.. ولماذا يا سعيد ؟ !

ـ انه كان يخشى أن تتجاهليه ..

ـ أنا ! وكيف لمثلي أن تتجاهل مثله وهو ملء السمع والبصر ؟!

وتمتم المهندس ببضع كلمات شكر ... وشعرت سعاد أنها تتمكن أن تستحوذ عليه بسهولة ، وأنها قد تجعل منه أداة تلوح بها لصلاح إذا صدف عنها ، وفعلاً ، فقد تمكنت بعد مدة وجيزة من أن تطمأن إلى خضوعه لها ، وعند ذلك قامت من جواره بعد أن أشعلت فيه النار التي تريدها ، وذهبت تفتش عن صلاح، وكانت قد لاحظت أنه لم يكن قد ارتاح لطول إقامتهــــا إلى جوار المهندس ، وحاولت أن تراه في الصالون أو الشرفات ،

ولكنها لم تقع له على أثر هناك .. وخرجت إلى الحديقة وفي نهايتها وبين مجموعة من الأشجار المتراصة وجدت ضالتها ... فقد كان صلاح هناك وإلى جواره إحدى صديقاتها من الغانيات ... وثارت سعاد لذلك ، فهي لم ترتو بعد منه ، ولا ترض أن تخسره بهذه السرعة ، فتقدمت نحوهما وهي تقول :

– أهكذا تعتزلان الحفل ، لتعتكفا هنا بين الاشجار ؟ ! .

وعلت البغتة وجه صلاح ، ولملمت رفيقته أطرافها في ارتباك واستمرت سعاد تقول بانفعال :

– أنا كنت أعرف أنك متقلب ، كثير النزوات يا صلاح ، ولكن ليس بهذه السرعة ، وليس على هـذه الصورة ! وتمتم صلاح قائلاً :

– أرجو أن لا تظني أني ...

وقطعت سعاد كلامه قائلة :

– دع عنك هذه الكلمات الفارغة ، هكذا أنت دائماً ، كل يوم في مكان وكل ساعة على اتجاه جديد .

– ولكنك انت .. أقصد .. أعني .

– أنا أدري ما الذي تقصده وما تعنيه يا صلاح ، فلا داعي لأتعاب نفسك في الكلام ، إن الذنب ذنبي ، أنا الذي وثقت بك وركنت إليك ، وفاتني أنك لا تختلف عن غيرك من الرفاق رجل مداج ، تتلاعب مع الريح .

ـ سعاد ... انك انت التي أهملت وجودي في الحفـــل ، وانصرفت عني إلى ذلك المهندس الشاب ..

ـ وما أنت وما وجودك ؟ . . لكي أهمله أو لا أهمله . . هل حفظت لوجودك قيمة ؟ هل استطعت أن تقف أمام نزواتك في داري على الأقل؟ أنت لم تعد تعني عندي شيئاً .

ـ سعاد .. ماذا تعنين يا سعاد ؟ !..

ـ نعم ، أنا أعني أنك رجل .. رجل نزق لا تستقر على حال ..

قالت سعاد هذا واستدارت وابتعدت عنهما . وساء صلاح أن يكون قد أغضب سعاد ولم يعد يطيب له المقـام مع فاتنته الجديدة ، ولاحظت صاحبته عليه ذلك . فصممت على أن لا تدعه يفلت منها بسهولة ، فحاولت أن تغـــريه بالجلوس ، ولكنه امتنع وأصر على الالتحاق بباقي المدعوين ، وفكر أنه سوف يتمكن أن يسكب بين يدي سعاد دموع الندم والتوبة حتى يسترضيها ويردها إليه ، وفاته أن سعاد كانت تحوم حول صيد جديد ، وهو المهندس الشاب .. وإنها لم تثر غيرة عليه أو حباً له ، ولكنها كانت تريد أن تجعل من هــذه الحادثة وسيلة للتهرب منه إلى حين ..

أما سعاد فقد التحقت بضيوفها و كأنها لم تتخاصم مع أحد ، ولاحظت أن زوجها لم يكن في المكان الذي عهـــدته فيه ،

ففتشت عنه في الشرفات فلم تجده أيضاً . وخرجت إلى الحديقة مرة ثانية ولكنها لم تره ، ففكرت لحظـة ثم توجهت نحو غرفته الخاصة وهنـــاك ... رأته ملقى على سريره بينما ، كانت سنية جالسة عند راسه تمسح وجهه بالماء. وتقدمت نحوه سعاد وانحنت عليه دون أن تفوه بكلمة فزكمتها رائحة الخمرة المنبعثة من فمه ، وعرفت أنه مخمور ، وكان من عادة محمود أن يقع دائمـــاً تحت تأثير الخمرة إذا أكثر منها ، لأنه لم يكن يشربها من قبل زواجه واتصاله بسعاد ورفعت سعاد رأسها وسألت سنية قائلة :

ـ من الذي جاء بسيدك إلى هنا يا سنية ؟

وردت سنية في تحفظ :

ـ أنا يا سيدتي .

ـ وكيف قدتيه إلى هنا وهو على هذه الحالة ؟!

ـ لا ... انه لم يكن هكذا حين ذاك .

ـ إذن أنت سقيته هنا أيضاً ؟

ـ نعم ، إنه هو الذي طلب مني ذلك .

ـ يا لك من سافلة .

ـ عفواً يا سيدتي لست بسافلة .

ـ أتستكثرين ذلك يا سنية ؟!

ـ أنا لا أختلف عنك بقليل أو كثير وأنا لا أقر أن سيدتي سافلة .

ـ ويل لك من صلفة لئيمة ..

ـ مهلاً . فقد اكتفيت من هــذا الحفل الصاخب بسيدي وحده ، صحبته إلى هذه الغرفة وهو مخمور لكي أنعشه وانبهه .. وأما أنت يا سيدتي ..

ـ اسكتي .. اسكتي يا بلهاء ..

ـ لست بلهاء يا سيدتي ، بل إني أذكى مما تظنين !

وانتبهت سعاد إلى أن غيبتها عن المدعوين قد طالت أكثر مما ينبغي ، فاتجهت نحو الباب وهي تقول :

ـ حاولي إيقاظه بكل طريقة ، فليس من اللائق أن ينام هنا مخموراً وضيوفه على أهبة الانصراف .

وخرجت سعاد وهي تتعثر بأذيالها من الخزي والعار والحقد والبغضاء ، وكان صلاح قد عاد والتحق بجماعة الضيوف ، وحاول مراراً أن يختلي بسعاد ؛ ليعتذر لها ، ويبرر سـلوكه عندها ، ولكنها كانت تتجاهله وتتحاشاه ، ولذ لها أن تراه وهو يتعذب لهذا التجاهل الظاهري .

وكأن سنية فشلت في مهمتها فلم تتمكن من إيقاظ محمود ، وفعلاً فقد بدأ الضيوف ينصرفون ومحمود لم يعد بعد ، وبعد

ساعة كان الصالون قد اقفر إلا من صلاح . وركع صلاح أمام سعاد وأقسم بكل غال : أنه لم يكن يعني من مصاحبته لتلك السيدة غير اللهو وقضاء الوقت ، وأنه لا يزال كما كان عاشقها المفتون . وكان صلاح موهوباً في نسج الكلمات الرقيقة والألفاظ الخلابة ، ولم تكن سعاد تحتاج إلى كثير من عذر ، أو طويل استغفار، ولكنها شاءت أن تنعم أكثر باستغفار هذا الراكع على قدميها ، فماطلته بالعفو ، وتلاعبت به طويلاً قبل أن تفهمه أنها عفت عنه. واطمأن صلاح إلى رضائها فودعها وانصرف. وعادت سعاد إلى غرفة زوجها فوجدته مستغرقاً في نوم عميق ، فتوجهت إلى غرفتها وهي تشعر بإعياء شديد ، فقد حطم سلوك زوجها أعصابها ، كما أن خيانة صلاح كانت قد أثرت عليها كثيراً ، وخلعت عنها ملابسها ، واستلقت على سريرها ، وهي تشعر أن رأسها سوف ينفجر تحت تأثير الأفكار المتضاربة التي كانت تتصارع فيه . فقد خرجت من الاحتفال وهي لم تزدد إلا شعوراً بالحقارة ، وإحساساً بالضياع والحرمان ، وحاولت أن تنام ، ولكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً . وعادت تفكر في إبراهيم .. وهي في الواقع لم تخرج عن التفكير فيه طيلة الحفلة ، فقد كان ماثلاً في ذهنها على طول الخط ، ولكن في إطار من الحقد والنقمة ، فهي لم تكن تغفل عن فكرة الانتقام لحظة واحدة .. وودت لو تمكنت من جر نقاء إلى أمثال هذه الحفلات ؛ لعلها تغريها وتستهويها بلهوها وصخبها، فهي على ثقة أن نقاء لو ظهرت

في حفلة واحدة؛ لوجدت حولها عشرات من الشباب يركعون على أقدامها ويسجدون . وسعاد لا تشك لحظة في أن المرأة التي تصمد أمام إغراءات الشباب المندفع لم تخلق بعد على وجه الأرض ، وسهرت مع أفكارها طويلاً حتى غلبها النوم ، ولم تفق إلا وقد طلعت الشمس وعلا النهار ، فتمطت في فراشها قليلاً ، وكان من عادتها في أغلب الأيام أن تستدعي سنية؛ لتساعدها على الاستحمام، ولكنها لم تشأ أن تستدعيها ذلك الصباح بعد ما صدر منها في المساء الماضي ، فاستحمت بمفردها ، وصففت شعرها بنفسها ، وارتدت ملابسها ونزلت الدرج ، وحاولت أن تخرج من الدار دون أن تراها سنية ، ولكن صوت سنية باغتها وهو يقول :

ـ ما لي أراك وقد عزمت على مغادرة البيت دون إفطار يا سيدتي ؟ !

والتفتت سعاد نحو الصوت ، فرأت سنية في غرفة الطعام وهي تهيىء مائدة الافطار ، ثم أردفت سنية قائلة :

ـ لماذا لم تستدعني لمساعدتك في الاستحمام ؟ ! أرجو أن لا تكوني غاضبة عليّ .

واحتارت سعاد بماذا ترد على هذه المتهكمة الوقحة ، ولم تر بداً من أن تقول :

ـ أنا لم استحم اليوم ، ولذلك لم استدعك عند صحوي من النوم .

ـ ولكن تناهى لي خرير الماء وهو يصب في الحمام . وعلى كل حال فالمهم أن لا تكوني غاضبة .

ـ لا .. لا .. أبداً أبداً .

ـ هلا استفسرت عن صحة سيدي ! ؟

ـ آه لقد نسيت .. كيف حاله هذا الصباح ؟

ـ إنه لا يزال تعباناً يا سيدتي !

ـ إذن فهو لن يخرج اليوم أيضاً ؟

ـ نعم يا سيدتي ! فقد قال إنه لن يخرج من الدار .

وكادت سعاد أن تنقض على سنية فتنشب أظافرها في عنقها حتى ترديها ، ولكنها تذكرت الحبل الذي يشدها إليها فتمالكت نفسها ، وردت قائلة :

ـ اعتني به جيداً يا سنية ! فإنّ لدي موعداً هاماً . وعليّ أن أذهب .

وردت سنية في برود قائلة :

ـ إذهبي يا سيدتي مع السلامة .

وأسرعت سعاد في الخروج ، وكأنها تفر من شبح مخيف ، وتنفست الصعداء عندما شعرت أنها تحررت من سنية ومن سلطانها عليها إلى حين ، وهكذا أحست أن بيتها لم يعد بالنسبة لها سوى سجن بغيض يعمر بالمحن والآلام .



الفصل الثامن

أما نقاء فقد كانت تعاودها بين حين وحين رغبة ملحة في أن تحدث ابراهيم عن سعاد ، فقد كان يعز عليها أن تخفي عنه أمراً، ولكنها كانت تخجل حتى من مجرد ذكر سعاد فهي تأبى أن تعيد أمام ابراهيم كلمات سعاد وتفاهاتها لئلا يظن أنها تأثرت بها، ولو إلى حد قليل. وقد كانت أيامها تمر وهي مُحملة بالهناء والسعادة، ولم يكن يكدر عليها صفوها إلا قرب سفر ابراهيم فقد كان موعد سفره يكاد أن يحدد في وقت قريب ، وقد كانت خلال ثلاثة أسابيع مضت لم تجتمع بسعاد ولم تسمع عنها خبراً، وقد سرها ذلك ، فهي لم تكن تركن إلى صحبتها مطلقاً .

وبعد ثلاثة أسابيع رن جرس التلفون في غرفتها . وكانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً فردت عليه ، وإذا بصوت سعاد يفاجئها عذباً رقيقاً ، وهي تقول :

ـ لقد أوحشتيني كثيراً كثيراً يا عزيزتي .

وكادت نقاء أن ترد قائلة وأنا كذلك يا سعاد ، ولكنها أبت أن تسجل عليها كذبة لا تستند إلى الحقيقة؛ ولهذا أجابت بقليل من الفتور أهلا وسهلا .

ـ ولكنك جافية للصديق ، قاطعة للرحم ، أفما كان من اللائق بك أن تسألي عني ولو بمجرد سؤال ، أو تتصلي بي مرة واحدة في التلفون ؟! ألم يخطر لك أن إنقطاعي عنك لا يكون إلا لأمر مهم ؟!

ـ أبعد الله عنك كل مكروه يا سعاد .

ـ والآن أيضاً ألا تحاولي أن تعرفي السبب ؟

ـ آه .. صبعاً أنا أريد أن أسأل ، أرجو ألا تكوني مريضة يا سعاد ..!

قالت نقاء ذلك وهي تلعن في سرها سعاد ... وتتمنى لو أمكنها أن تقول لها : أنا لا يهمني السبب يا سعاد، وحسناً فعلت بعدم مجيئك إلي طيلة هذه الأسابيع . ولكن الخجل أيضاً كان يمنعها من ذلك ، فهي بطبعها هادئة لا تستريح إلى الخصام ، وجاءها جواب سعاد سريعاً وهي تقول :

ـ لقد ابتليت بالزائدة الدودية، ودخلت المستشفى وأجريت لي عملية جراحية ، ومنذ يومين فقط رجعت إلى البيت .

وهنا شعرت نقاء ببعض الإنعطاف نحو سعاد . فهي لم تكن تظن أن سعاد مريضة حقاً ، وفي هذه المرة ردت عليها بلهفة قائلة : آه .. إعذريني يا سعاد ! فلم أكن أعلم بذلك ، وعلى كل حال فالحمد لله على السلامة .

ـ أهكذا وفي التلفون ؟!

ـ سوف أحاول أن أزورك يا عزيزتي في أقرب فرصة .

ـ في أقرب فرصة ! ولماذا لا يكون اليوم أو غداً ؟

ـ أنا في هذه الأيام مشغوله يا سعاد .

ـ آه ... هل إن ابراهيم يشغل أوقاتك كلها يا نقاء ؟!

ـ لا ، ولكنني مشغولة على كل حال .

ـ وابراهيم أيضاً لا بد أنه دائب على زيارتك في كل يوم صباحاً ومساءً ..

ـ تقريباً .

ـ إذن فإن أوقاتك مشغولة معه ، يزورك في الصباح ولا يخرج إلى أن يحين الظهر ، ثم يزورك في العصر ولا ...

ـ لا أدري كيف تتكلمين يا سعاد ! إنه رجل عمل لا يتأخر في الصبح إلا دقائق معدودة .

ـ على كل حال فأنا لن أنتظر قدومك يا عزيزتي ، أنا أعلم

أنك مقيدة من ناحية إبراهيم ، ولكنني سوف أزورك أنا بدلاً من أن تزوريني .

ـ أهلاً .. ولكن متى ؟

ـ حالاً ، حالاً .. مع السلامة .

ـ مع السلامة .

واستغربت نقاء هذه الطيبة المتناهية من إبنة خالتها . وكادت أن تندم على سلوكها الجاف معها من قبل ، فهي لم تكن تعرف غايات سعاد وأهدافها ، ولم يكن بإمكانها أن تسمع سعاد بعد أن ألقت سماعة التلفون وهي تتمتم قائلة: الآن عرفت متى ينبغي لي أن أزور نقاء دون أن يفاجئني إبراهيم ، أنا لا أخشى إبراهيم . ولكني لا أريد أن يعترف عليّ الآن لكي لا يحول بيني وبين خطتي الانتقامية ، ولكنه سوف يتعرف عليّ يوماً ما ، بعد أن يخسر نقاء وتخسره ... سوف أسعى إليه بنفسي ؛ لأقول له : هنيئاً لك بعروسك المصطفاة التقية النقية الطاهرة .. سوف أحطم غروره وألوث مثله ومفاهيمه .

ولكن نقاء لم تسمع شيئاً من ذلك ، وأنى لها أن تسمع ؟ وجلست تنتظر وآثرت أن تستقبل سعاد في الصالون لكي تكون أمها حاضرة أيضاً ، فهي تعلم أن سعاد سوف تحد من كلامها بوجود خالتها ، ولكنها فوجئت بعدم وجود أمها في الدار ، وأخبرتها المساعدة التي لديهم أنها ذهبت لزيارة أخيها منذ الصباح،

وساء نقاء ذلك فقد كانت تقدر أن وجود أمها سوف يحول بين سعاد وبين الإسترسال في الـــكلام ، وبعد دقائق دق الباب ، فعلمت أن القـادم سعاد ... وذهبت المساعدة ؛ لتفتح الباب ، وتقدمت نقاء؛ لتستقبلها وكانت سعاد تتظاهر باللهفة البالغة ، ولم يسع نقاء إلا أن ترحب بها بحرارة وجلست سعاد وهي تتظاهر بالتعب ، وأخذت نقاء تعتــذر لأنها لم تعلم بدخولها المستشفى ، وضحكت سعاد وهي تقول :

ـ أنت أختي يا نقاء ! وأنا لا أعتب عليك مطلقاً ، ولكن كنت أخشى أن أموت دون أن أراك مرة ثانية .

وتأثرت نقاء لهذه الكلمات العاطفية ، وقالت بلهجة صادقة حنون :

ـ حرسك الله من كل شر يا سعاد! أنت لا تزالين في مستقبل حياتك وأول شبابك السعيد .

ـ حقاً أن الحياة ليؤسف عليها يا نقاء ! فحياتي مثلاً شريط ملون طافح بجميع ألوان اللذة والمتعة .

وتوجست نقاء خيفة من هذه الكلمات ... وفهمت أنها بداية لحديث طويل ، وردت عليها قائلة :

ـ جعل الله جميع أيامك سعيدة يا سعاد !

وسكتت سعاد برهة، شعرت نقاء خلالها أنها في سبيل إيجاد ثغرة تنفذ منها إلى حيث تريد، وصممت على أن لا تهيىء لها تلك

الفرصة ، ولا تدع لها مجالاً للكلام المسموم ... ولـكن سعاد لم تكن بحاجة إلى الجو الذي تهيؤه لها نقاء ، فاندفعت تقول :

ـ كنت أذكرك أمس أمام محمود وقد أظهر رغبة ملحة في زيارتك والتعرف عليك ، ولكني أخبرته أنك محجوزة ..

ولم تشأ نقاء أن ترد عليها ، لكي لا يطول بهما الكلام في هذا الموضوع ... فاكتفت بابتسامة خفيفة . غير أن سعاد لم تكن تتراجع بسهولة ، بل إستمرت تقول :

ـ لقد إندهش محمود من غرابة تصرف إبراهيم ، وتعجب أن يوجد رجل مثل إبراهيم في هذا العصر المتحضر ، ولكني قلت له : إنه إستطاع أن يقنع نقاء ، فهي سعيدة به على كل حال .

ومرة أخرى سكتت نقاء فلم تجب ، لا إقراراً منها لما كانت تقوله سعاد ... ولكن ترفعـاً من متابعة مثل هذا الحديث ، ولكن سعاد فسرت هـذا السكوت بموافقة نقاء على كلامها ، وإقراراً لما قالته ، فنشطت لمتابعة الحديث قائلة :

ـ هل يسمح لك إبراهيم بحضور الحفلات يا نقاء ؟!

وهنا لم تر نقاء بداً من أن تجيب ، فابتسمت وقالت :

ـ طبعاً . طبعاً يا سعاد ! ولكن حفلات من النوع النظيف .

ـ وهل تحضرين حفل ميلادي في الشهر القـادم إذ دعوتك إليـه ؟

ـ لا مانع عندي من ذلك ، وسوف أكون مسرورة .

ـ شكراً لك ... وسوف أعرفك على محمود الذي يتحرق شوقاً إلى رؤيتك منذ أمد بعيد .

وسكتت نقاء ولم تدر كيف تجيب ... وفي وهلة فطنت إلى أن حفـلة سعاد ستكون مختلطة ولا ريب ، وقد فاتها ملاحظة ذلك من قبل.. وترددت لحظة .. هل تسألها عن نوعية الحفلة أو تترك ذلك إلى حينه ، وشجع سكوتها سعاد ، فتابعت تقول :

ـ كما أن عشرات من ألمـع شباب المجتمع سوف يترامون على قدميك بعبادة وخشوع .

هنا إنتفضت نقاء ... واصطبغ وجهها بحمرة قانية ، وقالت بحدة وعصبية ظاهرة :

ـ أنا لن أحضر حفلتك الموعودة يا سعاد ! فقد فاتني أن حفلاتك مختلطة ... ثم أنت تريدين أن تعرضيني لعيون عشرات الشباب ليركعوا تحت قدمي كأني سلعة ، لك أن تعرضيها لمن شئت من الناس ! لا أدري كيف سمحت لك نفسك التفوه بهذه الكلمات يا سعاد .. !

ـ أنا لم أقل أنك سلعة يا نقاء ! ولكنك تأخذين الكلام على غير معناه الواقعي ، وإنما كنت أقصد أنك في حضورك الحفلة سوف تخرجين قليـــلاً عن محرابك الموحش... أنا أرثي لحالك يا نقاء ! ولا أسعى إلا وراء سعادتك في الحياة .

ـ لقد نلت حظي الوافر منالسعادة فلا داعي لإجهاد نفسك في هذا السبيل .

ـ عجيب أمرك يا نقاء ! أحقاً أنت سعيدة ؟ أتسعدك هذه الجدران الأربعة وهذا المحيط الضيق ؟!

ـ أنا لست سجينة بين جـــدران ، أو مقيدة بمحيط ضيق يا سعاد ! أنا حرة بجميع تصرفاتي وتنقلاتي إلى حيث ما أردت ، وإلى أي مكان قصدت ، ولكن في نطاق العفة والحشمة .

ـ ولكنك في الواقع أسيرة في حريتك . مقيدة في إنطلاقك أو ليست هـــذه الأطواق الملعونة تلتف حول رأسك وعنقك الجميل ؟! أو ليس المعطف الأسود العريض يحجب قوامك اللدن عن الأبصار ويـــبرزك على شكل كيس يتساوى فيه الطول والعرض ؟! ولكنك لا تزالين في غفلة عن ذلك ، أليس من الجرم أن تظهري للمجتمع بلبوس العجائز وأنت الفتاة الجميلة البديعة التكوين ؟! أي شريعة هذه التي تجيز لابراهيم أن يظهر للمجتمع بأتم أناقة وأكمل زينة ، وتحرم عليك أن تبرزي أية ناحية من نواحي جمالك الرائع ؟! حقاً أنه لظلم .. وظلم فظيع ..

وهمت نقـــاء أن تجيب .. لكن سعـــاد لم تدعها تتكلم ، فأسترسلت تقول :

ـ إن أبشع جريمة إجتماعية هي أن تخضع فتاة مثلك لرجل وأي رجل كان ... أي دين هو هذا الذي يجعل من المرأة أداة

مستعبدة في أيدي الرجال ؟!

ولم تستطع نقاء أن تستمع أكثر من هــذا ، فاندفعت تقول وقد تهدج صوتها من الغضب :

ـ أنا لست محكومة لأحد ، ولم يفرض الدين عليّ أن أحكم لأحــد أياً كان حتى زوجي ، فليس الزواج في الإسلام ختم ملكية المرأة للرجل، ولا تخضع فيه المرأة المسلمة إلى أي حدود أو التزامات غير طبيعية . إن الإسلام يعطي للزوجة المسلمة إمتيازات لم تحصل عليها الزوجة في كل نظام وقانون غير الإسلام ولكنك مخدوعة ، ولا تفقهين ما تقولين !!

ـ وهل أن من إمتيازات الزوجة المسلمة أن تعتكف في بيت زوجها تطهو الطعام ، وتقوم على خدمة الزوج والأطفال ؟!

ـ ألإسلام لم يفرض على الزوجة ذلك . ولكن آداب الإسلام جعلت المرأة المسلمة بطبعها تتوق إلى إدارة بيتها والعناية بزوجها وأطفالها ، فهي مخيرة في ذلك ، وليست مجبرة إطلاقاً ... وأما الحجاب الذي التزمه فيه فهو ليس سوى إبراد ، تقي شر الذئاب من الرجال ، وأنا فخورة به حريصة عليه ، فإذا كان كل ما يهمك صلاحي .. فاعلمي أني أسعد منك بكثير .

ـ أنا لا أقصدك أنت بالخصوص ، فلعل إبراهيم قد أعشى بصرك إلى حين ، ولكنني أعارض الفكرة بشكل عام ، نعم الفكرة الرجعية التي تريد أن تتحكم بمستقبــل فتيات في عمر الزهور ، حقاً أنه لو أد غير مباشر .

ـ إن هذه الفكرة التي تعدينها رجعية هي في الواقع أروع فكرة إجتماعية إصلاحية تغدو المرأة في ظلها أعز امرأة عرفها التاريخ ، لو تم تطبيق هذه الفكرة ، وسوف يتم في يوم إن شاء الله . ثم إن السفور في الواقع هو الذي يمثل الرجعية التي قضى الرجوع إلى الوراء، لأنه يعود بالمرأة إلى زمان الجاهلية فيما قبل الإسلام .

ـ أنت الآن مخدوعة يا نقاء ! في ذهنك كلمات أخذتيها عن إبراهيم ، وها أنت ترددينها بدون قصد وبدون أن تعرفي معناها الواقعي ، ولكنك لو فكرت بما قلته لك جيداً لعرفت تفاهة هذه الأفكار ورجعيتها ، ولعرفت أن كلامي هو الكلام الصحيح الذي يجاري العصر الذي نعيشه ، والمجتمع الذي من حولنا .

ـ انك أنت المخدوعة يا سعاد ! وهذا مما يؤسف له حقاً أن تحطمي حياتك نتيجة للسير وراء الدعايات المضللة والأفكار المسمومة ، أما أنا فكوني واثقة من أنني اعني ما أقول وأنني مؤمنة بآداب الإسلام وتعاليمه كأنجح وسيلة تمكنني من شق طريقي خلال مسيرة الحياة في أمان ، أنا لا اردد كلمات اخذتها عن ابراهيم، ولكنني اردد كلمات تنطلق من مفهوم الإسلام وتنطق عن مثالية التنظيم الإجتماعي في رسالة السماء ..

وحيناً رأت سعاد أن عليها أن تدع هذا الحديث عند هذا

الحديث عند هذا الحد ، وأن تكتفي ليومها ذاك بهذا القدر من الكلام لأنها لاحظت على نقاء إندفاعاً في الرد لم تكن قد تحتسبه من قبل ، وفعلاً فقد غيرت مجرى الحديث وسألت نقاء قائلة :

ـ اين خالتي يا نقاء ! منذ مدة لم يتفق لي أن أراها عند زيارتي لك ..! كنت أحسبها سوف تسعى لاستقبالي بعد هذا الإنقطاع الطويل ...

وودت نقاء لو تمكنت أن ترد عليها قائلة : إن خالتك تمقتك وتكرهك ، وهي لا تطيق رؤيتك ، بل وتتهرب منك ما وسعها التهرب ... ولكن الإتزان منعها عن ذلك، فاضطرت إلى أن تقول :

ـ لقد ذهبت أمي لزيارة خالتي منذ الصباح ، ولعلها سوف تعود قريباً .

وهكذا إستمر بهما الجلوس، وسعاد تحاول أن لا تتطرق إلى موضوع كلامها الأول ، وحوالى الساعة الثانية عشرة إنصرفت سعاد وحرصت على أن تكرر على نقاء وصيتها لها بالتفكير بمستقبلها مرة ثانيه، وصممت نقاء بعد زيارة سعاد هذه ان تحدث إبراهيم عنها وان تخبره بقرابتها لها لكي لا يستنكر إجتماعهما إذا صادف ورآهما مجتمعتين .



الفصل التاسع

حاولت نقاء ان تجر حديثها مع إبراهيم إلى ذكر اقاربها ، وانتهى بها القول إلى أن تذكر سعاد ، فقالت :

ـ أما بنت خالتي سعاد فهي سيدة شابة جميلة الوجه ، بديعة التكوين ، ولكنها ليست من الطراز الذي يعجبني أو يرضيني .

وأظهر إبراهيم إستغرابه لذلك، فقد كانت أسرة نقاء طيبة السمعة ، مشهورة بالإعتدال ، وأردفت نقاء قائلة :

ـ إنها ربيت يتيمة ، فقد مات أبوها وهي لا تزال طفلة ، وأفرطت أمها في تدليلها ، ولهذا فقد ركبها الغرور والطيش، وقد تزوجت وسافرت مع زوجها إلى أوروبا ، على أمل أن يحصل زوجها على شهادة جامعية ، بعد أن فشل في تحصيلها هنا ، ولكنه فشل هناك أيضاً، وقد رجعا بعد

قراننا بأيام ، ولكن سعاد لم تفهم بذلك إلا متأخراً ، فأنا لم أزرها عند عودتها من أوروبا ، وقد جاءت لزيارتي مرتين أو ثلاثة .

وكان إبراهيم ساكتاً يستمع إلى نقاء ، ولكنها قرأت على وجهه علائم عدم الإرتياح ... واستمرت تقول :

ـ إنها متطرفة أكثر مما يجوز بكثير ، فقد اعشت عينيها أنوار أوروبا الخداعة ، فهي دائمة التحدث عن معالم حضارتها .

ـ ومن تكون بنت خالتك هذه أو من يكون زوجها بتعبير أصح ؟!

ـ إنها سعاد ، ولا اعرف عن زوجها سوى أن اسمه محمود ، وهو مفرط في الثراء .

ـ ثراء وفراغ وجهل ، إن هذه العوامل هي أخطر ما تكون على المرء .

ـ والجمال أيضاً ، فسعاد جميلة جداً يا إبراهيم إنها آية في الرشاقة والأناقة ، وقد كنت احتفظ لها بصورة عندي، قدمتها لي منذ سنوات .

ثم نهضت وجاءت بـ (ألبوم) التصاوير . وقلبته حتى استخرجت منه صورة سعاد ، وقدمتها لابراهيم قائلة :

ـ هذه صورتها قبل زواجها وقبل سفرها إلى أوروبا .

ثم عادت نقاء تقلب (ألبومها) لتنتقي منه بعض صور تذكارية تريها لإبراهيم ، ولذلك فقد فاتها ملاحظة الصفرة التي علت وجه إبراهيم عند رؤيته لصورة سعاد وقد عرفها لأول وهلة ، وعرف أنها هي تلك الفتاة اللعوب التي تابعته بغزلها حيناً من الزمان . وعجب أن تكون هذه الغانية قريبة لنقاء ، وساءه انها على إتصال بزوجته ، وما يدريه فلعلها سوف لن ترتاح إلى هذه الزوجية السعيدة ، وتعمل على خرابها ، وهم أن يقول لنقاء: إن هذه ليست سوى إمرأة مبتـذلة نزقة فتجنبيها جهدك يا نقاء ! . ولكنه عاد فتذكر انها الآن زوجة وربة بيت ، فلعلها قد أقلعت عن ألاعيبها الصبيانية ونزواتها الطائشة ، فلا يصح له أن يبعث ماضيها من جديد ، أو ينبش ما لعلها دفنته بين صفحات السنين الماضية . وهكذا حال دافع الخير عنده عن التصريح بما يعرف عن سعاد . ثم انه لم يكن يريد ان يخبر نقاء بموقف سعاد منه ، لئلا يجعلها في حرج من اتصالها بسعاد . وهو ايضاً يأبى ان يكدر صفاء ذهنها بأمثال هذه الحوادث ، ويود جاهداً ان ينأى بها عن كل ما يخدش روحها ، او يكدر أفكارها . وبما ان دوافع الخير كانت هي المسيطرة على إبراهيم في تلك اللحظة ، فقد اكتفى بأن ارجع الصورة دون ان يعلق عليها بحرف ، ورفعت نقاء راسها عن (الألبوم) وقالت :

ـ أرايت كيف انها جميلة؟ ليت روحها كانت قد اكتسبت شيئاً من هذه الروعة الخلقية .

فابتسم إبراهيم ابتسامة باهتة ، وقال :

ـ أنا لا أنكر أنها جميلة ، ولكني لا أستسيغ هـذا النوع من الجمال المتكلف، الذي لم تحصل عليه صاحبته إلا بعد جهد جهيد، ثم أنه جمـــال مبطن بالبشاعة يخفي وراءه عوامل كثيرة ، كلها ليست خيرة ولا صالحـــة ، فالجمال الحقيقي هو الجمال الطبيعي الطاهر ، لا الجمال السطحي الملوث الذي تصنعه محلات التجميل.

وعجبت نقـــاء من أن إبراهيم قد تمـكن من التعرف على شخصية سعاد الواقعية ، على أثر نظرة واحدة لتصوير صغير ، وكانت قد استردت الصورة منـــه ، فهمت بوضعها في محلها من (الألبوم) وهي تقول :

ـ نعم إنها تماماً كما تقول يا إبراهيم !.

ولكن إبراهيم سارع فأمسك يدها برفق وهو يقول :

ـ لا .. لا تفعلي هذا يا نقاء ! فإن (ألبومك) يضم مجموعة خيرة من الصور الفاضلة ، فلا تدعي هذه الصورة تدنسه باندساسها فيه ، أنا لا أريد أن أطلب منك تمزيق الصورة ، ولكني أود احتفظت بها بعيداً عن هذه الصور الثمينة .

ورفعت نقاء وجهها نحو إبراهيم ، وتأملته لحظة قرأت فيها على وجهه المعبر ما لم يرد أن يفوه به ، فمدت يدها نحو الصورة، وشرعت تمزقها إلى قطع صغيرة ، وهي تقول :

ـ إذا كنت أنت لا تطلب ذلك مني ، فأنا سوف أمزقها

بيدي يا إبراهيم ! لكي لا يعود لسعاد عندي أثر ..

وتهلل وجه إبراهيم ، وهو يرى نقاء تمزق الصورة بهدوء ، صورة الفتاة التي جعلته يكفر إلى حين بالمرأة . وها هي نقاء تزيده إيماناً بوجود المرأة الصالحة ، .. وردد وكأنه يحدث نفسه قائلاً : الحمد لله ... وأسعد نقاء أن ترى الفرحة قد شاعت على قسمات وجه زوجها الحبيب ، ولذلك فقد حرصت على أن لا تعود إلى ذكر سعاد مرة أخرى لكي لا تكدر عليه صفوه وهناءه .



الفصل العاشر

كانت سعاد تعيش في دوامة من الإنفعالات وكان أهم ما يشغل أفكارها هو تخطيط أساليب الإنتقـام من إبراهيم ، ومن قيمه ومفاهيمه ، فهي تشعر بنار الحقد والنقمة تنهش صدرها نهشاً فتحرمها من الراحة والإستقرار ..

وكان محمود قد تمادى خلال الآونة الأخيرة في تجاهلها ، وبالسير وراء نزواته ونزعاته ولكنها لم تكن تولي ذلك أي أهمية ، فهي واثقة من أنها تتمكن وبسهولة أن تخضعه لها متى شاءت ... فلم يكن إنصرافه هذا إلا لإهمالها الكلي له في هذه الأسابيع ... وكانت تستعرض في ذهنها أشكالاً من أساليب الانتقام .

وفي ليـــلة أرقت ، وهي تفكر في خطة ناجحة تسلك بها طريقاً نحو الانتقـــام ، فقد كانت شخصية نقاء تقف حائلاً أمامها دون أغلب الخطط ، وفي

تلك الليلة ظنت أنها قد توصلت أخيراً إلى أضمن طريقة توصلها إلى ما تريد ، ونامت على أمل راسخ في النجاح ... وفي الصباح كان عليها أن تقوم بأول أدوار خطتها تلك ... وهو الإلتفاف مؤقتاً نحو محمود .. فقرعت الجرس واستدعت سنية لتساعدها على الاستحمام ، وبعد أن أتمت ذلك ، تلفعت بثوب حريري شفاف ، وصففت شعرها باتقان ، واختارت من مجموعة عطورها أعذبه رائحة ، وأقواه تأثيراً ... وكانت سنية لا تزال واقفة في ركن الغرفة تتابع حركاتها باهتمام بالغ .. وأكملت سعاد زينتها، وألقت على مرآتها نظرة رضاء ... لم يفت سنية ملاحظتها أيضاً ... ثم توجهت نحو باب الغرفة ، فابتدرتها سنية قائلة في دهشة :

ـ هل أن سيدتي تنتظر ضيوفاً في هذا الصباح ؟!

وضحكت سعاد ضحكة قصيرة وقالت :

ـ وهل تظنين أني أستقبل ضيوفي (الروب) ؟!

وردت سنية بجرأة قائلة :

ـ إذن فإلى أين أنت ذاهبة ؟

ولم تلتفت نحوها سعاد . وقالت وهي تفتح باب الغرفة :

ـ أنا ذاهبة إلى محمود ...

ثم أغلقت خلفها الباب ، وخلفت سنية وحدها في الغرفة ،

وهي تكاد تنفجر غـــيرة وحنقاً ... وأحست سعاد بمرارة لا تفوقها مرارة ، إذ وجدت أنها قد أصبحت أخيراً وهي غريمـة لسنية ، وصيفتها من قبـــل ... وكأن لسنية الحق الأول في محمود، وردتلو تمكنت من الفرار من هذا الجحيم الذي أضحت تعيشه في بيتها ، ومن الذلة التي أخذت تستشعرها وهي ربة هذا البيت ، ولكنها لم تكن تتمكن من الفرار وبريق الذهب يلمع أمام عينيها فيه ، ورنين المـــال يشنف أسماعها في أرجائه .. وبلغت غرفة محمود فقرعت الباب بخفة ، ثم أدارت اكرة الباب وهي تقول :

ـ هل تسمح لي بالدخولْ ؟..

ولم تنتظر جواب محمود ، فدخلت بعد أن طبعت على وجهها بسمتها الكاذبة ... التي طالما استطاعت أن تخدع بها الرجال .. وكان محمودمتهيأ للخروج ولكنه عدل عن ذلك بعد دخول سعاد، ورنت سعاد نحوه بدلال وهي تقول :

ـ لعلني لم أثقل عليك يا محمود ..!

ـ آه .. أنت تثقلين عليّ يا سعاد ..!

ـ أقصد إذا كان لديك أي موعد هام ..

ـ أبداً .. فأنت أهم عندي من كل شيء . ولولا جفاؤك لمـا أرتبطت بأية مواعيد ..

ـ شكراً يا محمود .! أنت طيب القلب .. نعم وأنت رحيم.

كانت سعاد جادة فيما تقول، فهي تعلم أن زوجها رجل طيب في الواقع ، ولكنه كان ضائعاً بين أكداس الثروة ، ولم يكن يتمكن بينها من تشخيص طريقه في الحياة ، وقد وجهته هي إلى الناحية التي تريدها ، والتي تحقق لهـا حريتها الكاملة المدعومة بأمواله .. وها هي الآن في طريقها إلى توجيهه وجهة جديدة . تساعدها على تحقيق غايتها الإنتقامية .

وأخذت تجاذبه أطراف الحديث ، وتنقل له بعض الحوادث والأخبار، وجرت الحديث إلى بعض أصدقائها.. إلى أن قالت:

ـ ... وقد بلغني أن صراعاً عنيفاً قائم الآن ، بين صاحبنا سعيد وبين الممثل سليم ..

وسكتت فلم تتابع ما قالته ، فسألها محمود قائلاً :

ـ حول أي شيء هذا الصراع يا سعاد ؟!

ـ إنه صراع سوف يخسر فيه الممثل سليم بلا ريب ، فإن عند سعيد من المال ما يؤكد له الفوز على غريمه .

وهنا بدأ الإهتمام واضحاً على وجه محمود ، فإن ذكر المال يغريه بمتابعة في الحديث ، وقال في تأكيد :

ـ المال .. نعم ، أنا أعتقد دائماً أن المال يصنع المعجزات ولكنك لم تخبريني عن ماهية الصراع بعد ..

ـ إنه حول إمرأة يا محمود !

ـ حول امرأة ! وأي امرأة هي هذه يا سعاد ؟!

ـ إنها آية في الجمال يا محمود ! وكأن خالقها قد أبدع تكوينها ، لتكون نموذجاً للجمال في العالم ، وهي فتاة لم تتجاوز العشرين بعد ..

ـ آه !..

ـ نعم ، ولكنها بعيدة المنال ..

ـ وكيف ؟!

ـ قبل سنتين سبق وأن تخاصم عليها ثلاثة رجال ، كان لكل منهم المال والشباب ، ولكنها تجاهلتهم ، واختارت رابعاً يفوقهم ثراء .

ـ فهي متزوجة إذن ..

ـ لا .. لم يكن ذاك سوى مجرد صديق ، وقد خاصمته منذ مدة وجيزة .

ـ ولماذا ؟

ـ لا أعلم ، لعلها تاقت إلى ثراء أكثر ، ولذلك فأنا واثقة من أن سعيداً هو الذي سوف يفوز بها دون سليم .

هنا سكتت سعاد برهة ، لاحظت فيها أن محمود أخذ يفكر فيما قالته .. وبعد لحظات أردفت قائلة :

ـ ومن المضحك أنهما لا يصرحان لبعضهما عما يعرفان عن

الآخر ، فكل منهما يتجاهل سعي الآخر للوصول إلى هذه الفتاة ، كما أن كلاً منهما ينفي معرفته لها على الإطلاق ، لكي لا يثير حوله الشبهات التي تشجع الثاني على تشديد الإغراء .

وخرجت الكلمات متقطعة من فم محمود، وهو يسأل في لهفة:

ـ أين اتفق لهما أن رأياها يا سعاد ؟!

وفهمت سعاد أنها قد أصابت من زوجها هدفاً ، فأجابته :

ـ لست أدري بالضبط يا محمود ! ولكن الذي أعلمه أن صاحبتها هذه لها أساليب خاصة في المساومة .. فهي مرة تدعي أنها متزوجة ولها زوج وهي سعيدة به .. ومرة تتلبس بمسوح الدين ، وتتظاهر بالتزام جانب الفضيلة والإحتشام .. ولكنها متى ما وثقت من ثراء صاحبها وتفانيه في حبها ، خلعت عنها أبراد الخداع وبدت على واقعها الساحر .

واستغرق محمود في تفكير عميق .. نهضت على أثره سعاد ، واستأذنت للإنصراف ، ولم يشأ محمود أن يستبقيها أكثر من ذلك فقد كان كلامها عن الفاتنة العزيزة المنال قد أخذ عليه جميع أفكاره ولم يفت ذلك على سعاد ، فانصرفت عنه ، وهي واثقة من أن سهمها قد أصاب مرماه من دون جهد .. ثم دخلت غرفتها ، وألقت بنفسها على الكرسي ، وهي تحدث نفسها قائلة: أنا لن أخسر شيئاً من ذلك على كل حال ، فسيان عندي خلف أي غانية ركض محمود ، ولكن الفرق أن غوانيه الآخريات لا

تحققن لي غاية ، وأما هذه التي أحاول أن أدفعــه نحوها فسوف تحقق لي بانصياعها إليه أسمى هدف لي ، وهو الإنتقام .. نعم . الإنتقام من إبراهيم ومن مثــله ومفاهيمه ، وبعد أن تتحقق غايتي الإنتقامية سوف أستطيع بسهولة .. أن أرده إلي متى شئت .. فلن يخضع كبرياء تلك الفاتنة .. غير أموال محمود ، فليس من الممكن أن توجد إمرأة لا يغشي عينيهـــا بريق الذهب ، ولا يطربها رنين المال ، وليست نقاء سوى واحدة من النساء .. إن جميع مفاهيم إبراهيم ومثله لن تتمكن من الوقوف أمام تيـــار الذهب الذي يتدفق من يد محمود ، أنا لن أتمكن أن أجرها إلى الحفلات، أو أن أدل عليها الرجال ولكني أتمكن أن أرشد إليها محموداً على الأقل ..

واستمرت سعاد تحدث نفسها قائلة :

... ولا يهمني أكانت سنية غريمتي أم نقاء بل أنها لن تكون غريمتي مطلقاً.. فما دامت أموال محمود بين يدي فلن أشعر بغيرة أو مرارة . فشخص محمود لا يعني عنــدي شيئاً على الإطلاق . ولعلني أتمكن أن أستفيد من شخصه التافه إلى هــذا المضمار ... إن نقاء فتاة إنطوائية لم يسبق لهـــا أن سمعت كلمة غزل ، أو لاحظت نظرة إعجاب ، ولذلك فأنا على ثقة من أنها سوف تنهار أمام إغراءات محمود ، إنها بدأت تنعدم على زواجها منذ الآن، وكان سكوتها على حديثي في المرة الأخيرة أحسن دليل على ذلك، لقد نفذت إلى فكرها كلماتي وأفكاري ، وسوف لن أتراجـــع

حتى أسكب فيها جميع روحياتي، وأدلها على اتجاهاتي في الحياة، سوف أعرف كيف أرفع عنها هذا القناع الذي ألبسها إياه إبراهيم.. ولكن عليَّ الآن أن أتعرف إلى الأماكن التي تؤمها، والرياض التي تتنزه فيها .. نعم عليَّ أن أراقب ذلك إلى حين سفر إبراهيم فما دام هو قريباً منها لن أتمكن أن أعمل أي شيء، فقد استحوذ عليها بسحره، وهو الساحر المتمكن الذي يخضع له كل قلب حتى قلبي .. نعم حتى قلبي !

الفصل الحادي عشر

كان يوم سفر إبراهيم قد أخذ يقترب بل يكاد أن يحدد ، فقد تهيأ أخيراً إلى تقديم موعد سفره حرصاً منه على تقديم موعد الزفاف .

وفي أحد الأيام صحب إبراهيم نقاء إلى ربوع دمشق ، وانتهى بهما المطاف إلى الجامع الكبير ، فاعتزلا فيه ركناً قصياً ، واتخذا لهما مقعداً فوق بعض الأحجار .. وقد أخذ المسجد يحتشد بالمصلين كعادته في كل يوم .. ولذ لنقاء أن تتابع بنظرها المصلين المتنقلين في أنحاء الجامع بين الأماكن المباركة التي في رحابه ، وشعرت بنشوة روحية وهي ترى الوحدة الإسلامية تتمثل في صفوف المصلين . فالتفتت نحو إبراهيم قائلة :

ـ حقاً إن العبادات الإسلامية توحي بالرضا والإطمئنان .

ـ نعم ، تماماً كما تقولين يا نقاء ! وقد كان هذا الجامع منذ عهده الأول قاعة لاجتماع المسلمين ومصدراً لأحكام الدولة الإسلامية . كانت قوانين الإسلام تنطلق من هذا الجامع أيام كانت دولة الإسلام تحكم نصف المعمورة، وأيام كان صوت المؤذن يتردد على منابر العشرات من الدول هاتفاً بهتافه الخالد « الله أكبر » .

ـ ما أحلى تلك الأيام يا إبراهيم ليتنا كنا في ذلك العهد .

ـ نعم ما أسعد تلك الأيام ، ولكننا ما دمنا نعيش فكرة الإسلام ـ ونحيا على صعيد مثله وتعاليمه فنحن لا نزال سعداء يا نقاء ! إن سعادتنا في الصمود أمام التيار المنحرف تعني الكثير وفرحتنا عند كل انتصار لتغلبنا على نفسنا الأمارة بسلاح النفس اللواق لا تعادلها فرحة ، ثم ألم تسمعي كلمة الرسول (ص) ، « من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد » .

ـ إن المسلمين في صدر الإسلام كانوا سادات العالم يا إبراهيم .

ـ إنهم كانوا قادة للعالم لا سادة ، فالإسلام لا يعترف بقانون السادة والعبيد ، ولا يسود الرجل المسلم إلا بتدينه وتقواه ، ولم يكن المسلمون في طريقهم للسيادة على العالم ، بل كانوا في سبيل إرشاد العالم وتوجيهه وتهذيب آفاقه وتعقيم أفكاره . فالإسلام مبدأ عالمي خالد يصلح لكل عصر ومصر ، ولا يمكن الخلود لمبدأ ورسالة تقوم على السيادة . بهذه الروح والفكرة تمكن

المسلمون أن يصلوا برسالتهم إلى كسرى في إيوانه ، وإلى قيصر في أبراجه وحصونه ، وأن يطهروا بإسلامهم جميع الحضارات غير الإسلامية .

ـ وهل كان للمرأة المسلمة دور في صدر الإسلام ؟

ـ طبعاً ... فإن للمرأة المسلمة مواقف خالدة في تاريخ الإسلام وبطولاته ، وقد أثبتت جدارتها كمسلمة ، وشخصيتها كصاحبة رسالة ، فلم تكن المرأة المسلمة تقل عن الرجل المسلم ممارسة وإندفاعاً .

ـ ما أكثر الفرق بين المرأة المسلمة في صدر الإسلام وبين المرأة المسلمة في عصرنا هذا !

ـ إن المرأة المسلمة في عصرنا هذا مخدوعة يا نقاء ! والذنب في ذلك كله يرجع إلى الرجل الذي عمل على إستغفالها حتى نزل بها إلى هذا المستوى الذي انحدرت إليه ، ولهذا فإن علينا محاولة إيقاظها من غفلتها . وانتشالها من الوهدة التي تردت فيها دون أن تدري أو تعلم .

ـ إنني أخشى أن يكون إصلاح المرأة المسلمة ليس بالشيء السهل يا إبراهيم ، بعد أن تشبعت روحياتها بمفاهيم الغرب .

ـ لا تقولي المرأة المسلمة يا نقاء ، ولكن قولي المخدوعات من النساء المسلمات ، فالمرأة المسلمة لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تتشبع بروحيات الغرب ، أو تخدعها أفكاره

وآراؤه، فالمرأة المسلمة التي تعرف حقيقة دينها وواقع رسالتها تعلم واثقة أن لها في مبدئها أعذب معين ترد منه لتنعم بحقوقها كاملة في الحياة وحتى المخدوعات من المسلمات لم يفت الوقت في إصلاحهن بعد .. فالمرأة المسلمة عنصر طيب سوف ترجع إلى الطريق السوي متى ما رفعت الغشاوة عن عينها ، وسوف ترفع في أقرب فرصة .

ـ وكيف ؟!

ـ إن فشل النساء المتفرنجات قد أخذ يبدو واضحاً في حياتهن ، كما أن نسبة الفشل في الزيجات التي تقوم على أساس هذا التفرنج قد أخذ يتزايد تزايداً مطرداً في جميع الأقطار الإسلامية ، فإن زواجاً يقوم على أسس غير إسلامية لا يمكن أن يكون زواجاً سعيداً لائقاً للإستمرار .

ـ تصور يا إبراهيم ! أن بعض المخدوعات من فتياتنا يقدمن الدليل على إجحاف حق المرأة المسلمة بموضوع الحجاب، وبفرضه عليها هي وحدها دون الرجل .

ـ ليست هذه الأقاويل سوى ترجيع للدعايات الأجنبية ، والواقع أن الحجاب ليس وقفاً على المرأة دون الرجل في الشريعة الإسلامية ، ولكن نظراً لكون المرأة أقوى سحراً وأعمق تأثيراً كان حجابها أعم وأشمل من حجاب الرجل .

ـ هل حقاً ما تقوله يا إبراهيم ؟!

ـ إنه الحق بعينه يا نقاء ، فإن المرأة والرجل بما أنهما بشر يتساويان في نظر الإسلام ولم يفرض الحجاب على المرأة المسلمة لحساب كونها بشراً ولكن لحساب كونها أُنثى ، وصيانة لأنوثتها الطاهرة ، فكما أن على الأنثى أن تتستر بأنوثتها ، على الرجل أيضاً أن لا يظهر للمجتمع بدعوة كونه ذكراً ، بل لكونه بشراً فقط وبما أن معالم أنوثة المرأة أعم وأوسع من معالم ذكورة الرجل كان حجاب المرأة أشمل وأعم من حجاب الرجل ، فالإسلام لم يجعل من الحجاب أداة لتقييد المرأة أو حبسها عن المجتمع ، ولكنه جاء به كوسيلة لوقايتها من مفاسد المجتمع ومضاره ، فالمرأة المسلمة في صدر الإسلام كانت تشهد الحروب ، لتطبب وتداوي وتشجع وتحرض وهي في الوقت نفسه متلفعة بأزارها . ونقابها لم يثنها عن أن تقوم بدورها الفعال في المجتمع المسلم .

ـ ليتنا كنا كذلك يا إبراهيم !

ـ إن في وسع كل إمرأة أن تكون كذلك

ـ وكيف ؟!

ـ إن الجهاد لأجل العقيدة درجات وألوان يا نقاء ! ولا يمكن أن تتعذر بعض درجاته وأشكاله على المرأة المسلمة في كل وقت وحين .

ـ أتظن مثلاً أني أتمكن أن أجاهد في سبيل عقيدتي وإيماني؟

ـ نعم .. وتتمكنين بسهولة ، فإن صمودك عن الإغراءات ، وثباتك أمام التيارات ، ودفعك كلام الباطل بالحق ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر ، يعتبر جهاداً عند عجزك عن القيام بما هو أكثر من ذلك ، بل أن جهاد النفس هو من أقدس وأكمل ألوان الجهاد كما قال بذلك الإمام أمير المؤمنين (ع) تطهير النية من الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد .

وهنا ارتفع صوت المؤذن يتردد في أنحاء الجامع هاتفاً هتافه الخالد « الله أكبر ... » .

الفصل الثاني عشر

كان موعد سفر إبراهيم قد تحــدد في صباح يوم الأربعاء، ولم يكن قد بقى على رحيله سوى يومين ، ومنذ أيام مضت لم تعـــد سعاد تتصل بنقاء ، لكنها في صبــاح ذلك اليوم اتصلت بها تلفونياً بحجــة أنها كانت عند الخياطة ، وقــد كلفتها أن تخبر نقــاء بطلب حضورها لعمـــل (البروفة) فشكرتها نقاء ولم تزد على ذلك ، ولكن سعاد قالت لها أنها سوف تذهب مبكرة للخياطة ، وهي مستعدة لاصطحابها معها ، فلم يسع نقــاء إلا أن ترد عليها بأنها لا تتمكن أن تذهب خــلال هذين اليومين لأجل قرب موعد سفر إبراهيم . واهتمت سعاد بالخبر واستفهمت منهـــا عن موعد السفر وساعته .. ثم كررت عليهـــا استعدادها لإيصالهـــا إلى الخياطة في أي وقت رغبت ، وأنهت المكالمة ... انتبهت نقاء إلى أن حكاية الخياطة لم تكن سوى ذريعة لاتصال سعاد بها، فقد

كانت الخيـاطة تتصل بها تلفونياً في كل مرة لتطلب حضورها عندها ، ولكنها كانت في شغل عن التفكير في سعاد وما يدور حولها ... وفي صباح يوم الأربعاء استيقظت نقاء بعد ليلة لم تنم منها إلا القليل ، وتناولت فطورها على عجل ، وأخذت تستعد للذهاب إلى المطار ، وفي تمام الساعة الثامنة والنصف وصـل إبراهيم ليصحبها معه إلى المطار ، فقد اتفقوا على أن تذهب إلى المطار بصحبة إبراهيم ، ويلتحق بها أبوها هناك ، لتعود معه إلى البيت. وركبت السيارة إلى جوار إبراهيم، وهي ساكتة مطرقة تتحاشى نظرات إبراهيم كي لا يقرأ ما يعتلج في قلبها من أحاسيس ولم تشأ أن تتكلم لئلا يخرج صوتها متهـدجاً .. وشعرت أن إبراهيم يلتفت إليها بين حين وحين .. ويحاول تسليتها بأحاديث عن المستقبل وعهد اللقاء السعيد .. وفي المطار كانت تبذل جهداً كبيراً كي تخفي عن إبراهيم ما تعانيه من آلام الوداع ، وظنت أنها نجحت في ذلك ، إلا أن إبراهيم لم يغب عنـه ما تقاسي منه نقاء ، فقد قال لها بعد الوداع :

ـ أنا أعرف أنك تبـذلين جهداً كبيراً لأجلي يا نقاء ، وهذا ما سوف يجعلني وجلا عليك، ولكن تصبري واجهدي في الدعاء لنا بالتوفيق ، وتذكري عودتي ، وافرحي لساعة اللقاء . تصوري أن لديك عزيزاً طال به السفر ، وسوف يعود بعد أشهر ثلاث ، لا تفكري أن هذا بداية الفراق ، بل فكري أن اللقـاء سوف يكون قريباً بإذن الله .

شعرت نقاء وهي ترى إبراهيم يصعد سلم الطائرة ... إنها سوف تضعف أمام ضغط انفعالاتها ، وكادت أن تسقط لولا أن يداً رحيمة قد أسندتها من الخلف، ولم تحاول أن تلتفت لترى من يكون هذا الذي أسندها إلى صدره ، فقد عرفت أنه أبوها لا أحد غيره ... وأجلسها أبوها على أحد الكراسي لمدة وجيزة ، ثم صحبها إلى خارج المطار ، وكانت تستند على ساعد أبيها ، وهي تسحب قدميها بتعب وإعياء .. ساعدها أبوها على ركوب السيارة وتوجه معها نحو الدار، وفي الطريق شعر أبوها أنها تعاني الكثير من سفر إبراهيم ، فحاول أن يتكلم في أي شيء ، لكي يخرج بها عن بعض أفكارها وإنفعالاتها ، فقال :

ـ كان هناك في خارج المطار رجل فضولي وكان همه منحصراً في إلقاء النظرات على الرائحين والغادرين، وقد لاحظت إنه كان يطيل النظر إلى السيدات .

ولم تتمكن نقاء أن تتجاهل كلام أبيها فردت عليه قائلة :

ـ إن الدنيا تزخر بأمثال هذا الرجل من التافهين الفضوليين وما الذي يعنينا منه يا أبتاه ؟!

ـ لا شيء مطلقاً ولكن نظراته أزعجتني كثيراً .

ـ إن نظراته لم ولن تؤثر علينا يا أبتاه ، فمن حقه أن نرثي لأجله ، لا أن ننزعج منه ، فأمثال هذا من الرجال هم أجدر

البشر بالرثاء ، إذ يحرمون شبابهم ويبددون طاقاتهم بأفعالهم الصبيانية .

ولكنهم لا يشعرون بالهاوية التي يجرهم إليها هذا السلوك .

ـ نعم انهم مخدوعون .

واكتفت نقاء بهذا القـدر من الكلام ، فلم ترد شيئاً .. وفي البيت كانت أمها تنتظرها بفارغ صبر، فألقت بنفسها في أحضان أمها ، وهناك فقد أطلقت لدموعها العنان ...

الفصل الثالث عشر

أما سعاد فقد ألقت سماعة التلفون بعد محادثتها الأخيرة مع نقاء ، وبعد أن استوثقت من سفر إبراهيم. وعرفت ساعة سفره ، فركت يدها بغبطة ، وهي تقول : سوف أبدأ محاولتي الناجحة .. نعم ، سوف أبدأها في أول فرصة من سفر إبراهيم صاحب المثل والمفاهيم .. ولم تشأ أن تخرج ذلك الصباح ، بل عكفت في دارها تقلب خطتها على جميع الوجوه حتى استوثقت أخيراً من استكمال حلقاتها وعند الظهر تناولت طعامها مع محمود ، وعلى المائدة قالت وكأنها تذكرت أمراً :

ـ معذرة أنا لم أحدثك بتطورات الموقف يا محمود ..

ـ وأي موقف هو هذا يا سعاد ؟!

ـ الصراع القائم بين سعيد والممثل .

ـ آه .. حول تلك الغادة الحسناء ؟

ـ نعم حولها .

ـ ما الذي جد في الأمر يا سعاد ؟!

ـ إنهما لا يزالان يتباريان ..

يا لها من مقامرة ماهرة .. إنها تعرف كيف تكسب الرجل الذي يحمل إليها أكثر مقدار ممكن من المال ، تصور أنها الآن تتظاهر بمصادقة رجل كهل ، لكي تغيظ هذين الشابين وتزيد حماسهما إندفاعاً .

ـ كيف ومن أين لك هذه المعلومات وأنا لا أرى لهذه الفتاة أثراً ولا خبراً في أي حفلة من الحفلات أو أي منتزه من المنتزهات ؟!

ـ وما يدريك يا محمود، فلعلك رأيتها ولم تعرفها، فهي تظهر بمختلف الأزياء ، فتارة هي محافظة وقورة تلبس الطرحة وتلتفع بمعطف أسود ... ، وتارة هي غانية لعوب ترود الحفلات وتحي السهرات . وأنا لا أكاد اشخصها حتى الآن ، ولكني عرفت أنها سوف تذهب إلى المطار صباح يوم الأربعاء في الساعة التاسعة لموادعة إحدى صديقاتها، فإذا أمكنني الذهاب إلى هناك فسوف أتمكن من التعرف عليها بلا ريب ..

ـ وكيف يمكنك ذلك وسط مجموعة النساء اللاتي يعج بهم المطار ؟!

ـ أنا أعلم أنها بيضاء شقراء عسلية العينين ، بيضوية الوجه ، متوسطة الطول ، رشيقة القوام ، ثم إن لديها خالاً أسود فوق رقبتها من الجهة اليمنى ، وسوف يدلني هذا عليها بدون شك .. هذا إذا كانت سافرة . وأما إذا كانت في مسوح الحانظات ، فإن زيها أحسن دليل يدلني عليها ، وأغلب الظن أنها ستكون كذلك بلا ريب أن صاحبها الكهل، سوف يصحبها إلى هناك .. وهي تكثر الظهور بهذا الزي التنكري ما دامت معه .

واكتفت سعاد بهذا القدر من الكلام في هذه المرة ، فأتمت غذاءها على عجل، وتوجهت نحو غرفتها ، وما أن أوصدت خلفها الباب ، حتى تمتمت قائلة : سوف أتظاهر يوم الأربعاء بالمرض ، وسوف لن أخرج من البيت لأدع له المجال في الذهاب إلى هناك. هو لا يعرف أباها مطلقاً ، ولذلك فسوف يصدق ما قلته له عن وجود صاحب لها ، كهل ، فهي سوف تذهب إلى المطار مع إبراهيم في الساعة الثامنة والنصف كما أخبرتني ، والطائرة سوف تقلع في تمام التاسعة ، ولا بد أنها سوف ترجع مع أبيها إلى البيت ..

ثم ألقت سعاد بنفسها على السرير ، وأطلقت لفكرها العنان .. فكرت أنها قد أقدمت على مغامرة طائشة ، قد تفقد من ورائها محمود ، ولكن سرعان ما عادت تقول : إن محمود لن يتحرر من نفوذي عليه ، فأنا بالنسبة إليه أكثر من زوجة ، وأكثر من معشوقة .. أنا موجهة له ومرشدة ، أنا التي سكبت

فيه روحاً من روحي ، وبعثت في رأســه جميع أفكاري وآرائي ، انه لم يكن سوى رجل تافه خامل قبل أن ألقي شباكي عليه ، فهو صنيعة يدي في هذا الباب ، ثم إنه دائب على تتبع الغواني ، وترصد الفاتنات ، فما الذي يؤثر عليّ إذا كانت إحداهن نقاء ... إنه سادر في طيشه ، منساق وراء نزواته سواءاً مع هذه أو تلك ، ولديه من أساليب الإغراء أقواها أثراً وأرسخها أساساً ، وهو المال معبود الملايين ...

وفعلاً فقد نفذت خطتها كاملة ، فتظاهرت بالمرض في صباح يوم الأربعاء ، وأظهرت أمام زوجها أسفها لعــدم تمكنها من الذهاب إلى المطار ، والتعرف على تلك الفتاة ، وشعرت أن محمود قد أكثر من التأنق في ذلك الصباح ... وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين، خرج محمود من الدار ، وألقت عليه سعاد نظرة من نافذتها ، وهو يستقل سيارته ، وتمتمت تقول : إنك حريص جداً على تحديد المواعيد ، اذهب إلى حيث بعثتك يا محمود! ولتكن سيارتك الفارهة هذه أول أحابيل إغرائك... ولم تتمكن سعاد من الخروج ، لئلا يعود محمود قبلها فلا يجدها في الدار ، وفعلاً فقد عاد محمود في التــاسعة والنصف وذهب إلى غرفته رأساً ولم يخرج منها إلا إلى غرفة المائدة ، وتناولت سعاد الغداء معه فعرفت أنه في سبيل إيجاد أحسن طريقة يستحوذ بها على تلك الفتاة .

الفصل الرابع عشر

مر يومان على سفر إبراهيم ، ولم تخرج نقاء من الدار ، وفي صباح اليوم الثالث صممت على أن تذهب لزيارة خالة إبراهيم ، التي ربته وأنشأته ، وكانت له بمثابة الأم ، وعند البـــاب أبصرت سعاد وهي تترجل من سيارتها أمام البيت ، فلم يسعها إلا أن تقف لتستقبلها ، وكان لقاء سعاد لها ودوداً حاراً .. ولما عرضت عليها الدخول إلى الدار ، قالت : انها تود لو تحبس قليلاً في الحديقة ، وفي ظل إحـدى الشجيرات . . وفهمت أن سعاد تحاول الانفراد بها دون خالتها ، ولكنها لم يسعها أن تمتنع من ذلك ، وعزمت على أن تذهب لتستدعي أمها بعد قليل ، ولكن سعاد لم تتطرق إلى إبراهيم وسفره إلا بكلمات قصيرة ، وكان حديثها يدور حول أمور شتى بعيدة عن إبراهيم ، ولهذا لم تجد نقاء أي داع لطلب حضور أمها وهي تعلم أنها تنفر من سعاد

وتتحاشاها .. تحدثت سعاد عن حرصها الشديد على التنزه وهي راجلة في كل صباح .. ثم سكتت لحظة تنتظر تعليقاً من نقاء على كلامها ، ولكنها لم تعلق بشيء ، فلم تر بداً من أن تسألها قائلة :

ـ وأنت يا نقاء ! ألا يسمح لك بالتنزه للترفيه عنك في بعض الأيام ؟ ..

وآلم نقاء أن تكون جميع كلمات سعاد مسمومة . . ولم تر بداً من أن تجيبها وهي تتعمد اللا مبالاة .

ـ وقد أقصد منتزه الجمهورية ، أو حدائق الغوطة .

وتظاهرت سعاد بالاستغراب ، وقالت :

ـ آه ، إذن أنت لا تتعدين هذين المكانين ؟ .

ـ لا ، مطلقاً .

ـ وهل كان إبراهيم يصحبك إلى هناك .. أقصد أيسمح لك إبراهيم بذلك ؟ .

ـ أما مع إبراهيم كنت أذهب إلى كل مكان يراه مناسباً لي .

ـ إذن أنت وحدك تذهبين إلى هذين المكانين ؟ .

ـ نعم .. أو مع أبي .

ـ أو تذهبين وحدك يا نقاء ؟ !

ـ نعم بعد أن يأذن لي إبراهيم ! .

ـ كنت أظن أن تقاليدك تمنعك من ذلك .

ـ إن الآداب التي تعتبرينها تقاليد ، لا تقيد الحريات المهذبة ، وإنما تشترط في كل ذلك أن يكون في إطار ديني ، وأن لا يخرج عن حدود الآداب الإسلامية .. ولي من عقيدتي ومبدأي ما يقيني كل سوء ، ويدفع عني كل شر .

ـ وكيف تقضين أوقاتك هناك وأنت وحيدة بين مئـــات من الناس ؟ .

ـ إن من عادتي أن أعتزل المنطقة المزدحمة ، وأختار لي كناً قصياً ، وأصحب معي آثر كتاب عندي ، فإن المطالعة هناك تحلو لي كثيراً ...

فتأوهت سعاد ، وكأنها تستمع إلى كلام ذي شجون وقالت بصوت يقطر أسي ومرارة :

ـ يا له من ظلم فظيـع .. أمثلك تعتزل المجتمع وتعيش على هامش الحياة ؟ أتكون محاسنك هذه رهناً للمعطف والطرحة السوداء ، وتكون أفكارك الفتية مدفونة بين صفحات كتاب؟ إن أسفي عليك لا يكاد ينقضي يا نقاء ! فأنت جديرة باحتلال عرش ملكات الجمال . حقاً أن الماس ليبدو غريباً إلا على جيدك العاجي ... أنا على ثقة من انك لا تزالين تجهلين حقيقة جمالك وروعته ، فالفتاة الصغيرة لا تشعر بواقع جمالها إلا إذا استمعت إليه من أفواه الرجال ، فهم أخبر ما يكونون بأنواع الجمال ،

إن حياة المرأة تبـــدأ عندما تشعر أن ألوفاً من القلوب أخذت تحوم حولها . فما دامت الفتاة مغلفة بالأبراد ، فهي لن تتمكن أن تعرف لأنوثتها طعماً ، او تشعر لجمالها لذة . . أنت مظلومة يا نقاء ! فما أنت تقبعين هنا في عزلتك هذه ، في الوقت الذي يتنقل فيه إبراهيم حراً طليقاً في ربوع فرنسا . . أنت تتجنبين رجال بلدك ، وإبراهيم يتقلب في أحضان غانيات باريس . .

قالت نقاء :

ـ أية حياة هـذه التي تتحدثين عنها يا سعاد ؟! ومتى كانت غرائز الرجال هي المحور في تهديد شخصية الفتاة ؟ إن غرائز الرجال تتمكن أن تقيم جانباً واحداً من جوانب وجودها فقط وهو الجانب المادي ! هذا الجانب الذي لا يمكن أن يكتب له الاستمرار بصورة ثابتة في حياة الفتاة، ولهذا فإن الكيان الذي تصل إليه الفتاة في مسيرة حياتها نتيجة حكم غرائز الرجال عليها محدود الأمد والنمو والكيان الذي تحققه الفتاة لنفسها عن طريق حكم العقول والأفكار ، هو الطريق الثابت القابل للتصاعد والتقدم نتيجة تصاعد الأسباب التي دعت إليه ، والدين هو المنار الذي يهدي السائرات إلى تحقيق وجودهن على أساس هذا الواقع الثابت المستقيم ، إنني لست مظلومة ، ولكن الفتاة التي تفتقد أنوثتها وكرامتها وتستميل إلى سلعة مقروضة يختارها الرجل تارة وينبذها أخرى . . مظلومة يا سعاد . . ! إنني لست أسيرة وإنني حرة في جميع تصرفاتي ، لا أخضع لأحد فيهـا سوى الله

عز وجل ، ولكن الأسيرة تلك التي يتلاعب بمقدورات وجودها واضع موضة ، أو مصمم زي من الأزياء ، أو مقترح صبغ من أصباغ الوجه والكفين ، أما الآن فإنني سأذهب لأستدعي أمي ، فقد ظننت أنك لن تتطرقي إلى أمثال هذه المواضيع . . أما الآن فقد وجب حضور أمي .

ولكن سعاد سارعت بالنهوض أيضاً وهي تقول :

– ولكني آسفة يا نقاء . . ! فقد حان وقت عودتي الى البيت ، فإن لدي ضيوفاً ولا بد أنهم قادمون بعد قليل .

فلم ترد عليها نقاء ولم تحاول أن تستبقها ، بل ظلت واقفة وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية ، فقد ودت لو أن سعاد لم تكن ضيفتها أو قريبتها ، إذن لعرفت كيف تتصرف معها .

ولهذا فقد انصرفت سعاد بسرعة ، وحرصت على أن تجتمع مع محمود في ذلك اليوم ، وأن تشير أمامه إلى أن الفتاة التي يحوم الصراع حولها ، تتردد على منتزه الجمهورية ، أو حدائق الغوطة ، وإنها لا تتعدى هذين المكانين ما دامت لم تصل إلى اختيار واحد من الإثنين . . ومنذ ذلك اليوم كان محمود يتنقل بين هذين المكانين ، وكله عيون تتطلع ليجد ضالته بين الحسان ، بعد أن رآها وعرفها في المطار ، وقد توطد أمله بالفوز بها بعد أن رآها في صحبة أبيها الذي صورته له سعاد بصورة صديق أو خليل

وعزا ذلك إلى أن مصاحبتها لهذا الرجل الكهل ، لم تكن إلا لأجل المال ، وهو يملك المال والشباب .. ومرة رآها في ركن قصي من المنتزه ، وكان معها نفس الرجل الكهل ، فلم يشأ أن يتقرب نحوها ، واستمر ينتظر فرصة أخرى في يوم ما ..

الفصل الخامس عشر

كانت نقاء تتلقى في نهاية كل أسبوع رسالة من إبراهيم ، وكانت رسائله مسهبة مفصلة ، يحدثها فيها عن أعماله وأحواله وعن أفكاره ومشاعره ، وهي مليئة بكلمات الحب ، نابضة بعبارات الإخلاص والوفاء ، ولم تكن نقاء تتوانى عن الرد ، فهي تكتب في يوم وصول رسالته إليها وتحدثه أيضاً عن أحوالها ، وما يجد في حياتها ، كما انها كانت تحاول أن تبعث فيه بكلماتها العاطفية العذبة ، روح المقاومة على الفراق .. وكانت تقضي أيام الأسبوع وهي تعيش مع رسالة إبراهيم ، تعيد قرائتها مرة ومرة ، وتعد كلماتها باتقان ، ثم تعود لتعد حروفها أيضاً ، وعندما كانت تشعر بوحشة ممضة ، كانت تقصد المنتزه لترفه عن نفسها في الهواء الطلق .. وفي مرة كانت تجلس في ركنها المنعزل من المنتزه ، وهي منهمكة في مطالعة رواية معربة

لفيكتور هيجو ، أحست أن وراءها من يتطلع نحوها ، ونحو الكتاب الذي تقرأ فيه ، ولكنها رأت أن من الحكمة أن لا تلقي بالاً إلى هذا المتطفل أياً كان، ولهذا فلم ترفع رأسها عن الكتاب، وفجأة شعرت أن كرسياً قد وضع قريبـــاً من الكرسي الذي تجلس عليه ، ولم تلتفت كذلك ، فقد كانت هذه هي طريقتها دائماً في تجاهل الفضوليين ، وبعد برهة وجيزة أقبل الساقي ليسألها إذا كانت تطلب شيئاً ، فرفعت رأسها وقالت : انها تطلب كأساً من عصير الليمون . وذهب الساقي ليأتي بما طلبت ، ولكن صوتاً غريباً ارتفع من الجالس على الكرسي القريب منها ، وهو يقول :

ـ أرى أن الآنسة تفضل شراب الليمون ..

فالتفتت نحو مصدر الصوت لترى شاباً قد اتخذ له مجلساً على كرسي هناك ، وها لها منه هذه الميوعة التي كانت تبدو واضحة عليه ولم تر بداً من أن تجيب قائلة : نعم . . ولم تزد على ذلك ، وهمت أن تنهض لتنصرف ، ولكنها لاحظت أنها مقيدة أدبياً بانتظار الساقي . فتململت في جلستها وعادت تقـــرأ ، ولكن الرجل المتطفل لم يكن ليهزم بهذه السرعة، ولم يخطر بباله سوى انها أساليب إغراء ، فأردف يقول :

ـ ما هذا الكتاب الذي استحوذ عليك يا آنسة ؟! .

ولم تنشأ أن تجيبه ، ولكنه كرر سؤاله ثانية وثالثة . . فلم

تر من اللياقة أن تبقى أسئلته المتكررة بدون جواب.. فأجابته في برودة قائلة :

ـ انه « عاصفة وقلب » لهيجو .

ولم يفهم محمود لكلماتها معنى، فهو لم يقرأ أي كتاب لهيجو، بل ولم يكن يعرف أي شيء عن أسلوبه في الكتابة ، ولذلك فهو لم يقع في جوابها إلا على كلمة « عاصفة وقلب » فأرسل آهة قصيرة ثم قال :

ـ إن أروع القصص هي قصة القلوب .. نعم ، القلوب الخفاقة بالحب ، الناضحة بالوجد ، إن أقدس شيء في الحياة هو الحب يا آنستي العزيزة .

وأزعجت نقاء هذه الكلمات ، وردت عليه ، وكأنها تحدث نفسها قائلة :

ـ إن أقدس شيء في الحياة هو المبدأ . وأعز شيء هو الدين والعقيـــدة .

وظنت أنها قد تخلصت بجوابها هذا من مضايقة محدثهـــا المتطفل وأنه سوف يعرف أن أهدافه لن تصيب عندها مرمى ، ولكن محمود لم يكن لتهمه هذه الألفاظ ، وهو يظنهـــا رياءاً وخداعاً ، وساءه أن تكون فاتنته قد اختارت أن تلعب معه هذه اللعبة ، فتصاحك وهو يقول :

ـ إن الحب والمال هما العنصران الأساسيان في الحياة ..

فلا حب بلا مال ، ولا مال بلا حب . . فأنا مثلاً لدي من المال الشيء الكثير ولكني ما زلت أسعى وراء الحب ، إن الذهب الذي بين يدي حائر يفتش عمن يتهاوى على قدميها . .

وهنا لم يسع نقاء إلا أن تنهض سواء أجاء الساقي أو لم يجيء، فانتفضت واقفة وهي تقول :

ـ إنك على خطأ فظيع ، فإن المال الذي تضعه أنت قبل كل شيء وفوق كل شيء ، ما هو في الواقع غير خديعة وسراب قد يتلاشى في لمحة عين ، فلا يخلف وراءه غير الحسرة والندم . . ولكن الشيء الوحيد الذي هو فوق كل شيء وقبل كل شيء هو الكرامة .. نعم كرامة الإنسان .. ولا تكتسب هـــذه عن طريق مال أو ثروة .. ومن يفلس منها فقد أفلس من كل شيء.

قالت نقاء هذا وأخذت طريقها نحو الخروج .. ولم ييأس محمود بل زاده هذا اللقاء رغبة واندفاعاً ، وتمتم قائلاً وهو يراها تبتعد عنه : حقـاً انها لعنيدة ماكرة ، ولكني سوف أعرف كيف أكشفها على حقيقتها .. ثم نهض وتوجه نحو الخارج وقرب نحو الخارج وقرب سيارته نحو باب المنتزه، ثم ترجل منها ووقف إلى جوارها وعيناه شاخصتان إلى الباب .. فقد كان يعلم أن نقاء لم تخرج بعد وقد رآها تدفع ثمن العصير ، ثم خرجت فتقدم نحوها خطوات ، ولكنها تجاهلته واتجهت إلى الناحية الأخرى، وكاد أن يناديها ليعرض عليها إرجاعهـــا إلى البيت ، ولكن شيئاً ما في مشيتها وتجاهلها له منعه من أن يقوم بأي عمل

صبياني .. فتراجع نحو سيارته وهو يقول : انها رأت السيارة ولا ريب ، وسوف يأتي اليوم الذي تطلب هي فيه أن تستقلها إلى جواري ، أما الآن فإن عليّ أن أتبعها لأعرف بيتها الذي تسكن فيه . وكانت نقاء قد توجهت إلى « الأمانة » واستقلتها، وأسرع محمود بسيارته خلف السيارة التي كانت فيهـــا نقاء ، وحرص جداً أن لا يفوته تعقبها من بين باقي السيارات ، وفي أحد الشوارع وقفت السيارة التي كان يتبعها ونزلت منها نقاء فدلفت إلى أحد البيوت ، فأوقف محمود سيارته ، ونزل ليرى رقم البيت حتى يسهل التعرف عليه فيما بعد ، ولكنه فوجيء بلوحة تحمل اسم إحدى الخياطات الشهيرات ، فعلم أنها زبونـ لهذه الخياطة ، فشعر بالخيبة لم يسعه إلا أن يعود بسيارته من حيث أتى ، وقد كانت نقاء قد خمنت ذلك ، ولهذا لم تشأ أن تذهب إلى البيت لئلا يتبعها هذا الرجل الفضولي إلى هناك .

الفصل السادس عشر

رجعت نقاء إلى البيت ، وكان في انتظارها هناك رسالة من إبراهيم، أنستها الرجل المتطفل، وكل ما يدور حوله ، وأمضت في قراءتها وقتاً طويلاً .. فهي كالعادة رسالة مسهبة تشرح كل شيء ، وتتناول كل موضوع . . وأحست نقاء أن إبراهيماً لا يزال قريبـاً منها ، فهي لم تفتقد روحه ولم تنقطع عن أفكاره ، فهذه رسائله الأسبوعية تنبض بالحيـاة وتصل بين قلبيهما وفكريهما ، ولا تدع لعامل من عوامل الفراق أن يقطع هذه الصلة الروحية .. وفي المساء سهرت نقاء مع كتابة رسالة لإبراهيم ، ولم تنته منها إلا في ساعة متأخرة من الليل ، فآوت إلى فراشها وهي تحس بمتعة ونشاط ، وكأنها عادت من سهرة كانت تضمهـا مع إبراهيم .. وكان يلذ لها كثيراً أن تجلس في نهاية كل أسبوع لتحدث إبراهيم في رسالتها عن أسبوعها المنصرم وكل ما جد في

حياتها خلاله . وفي الصباح ذهبت بنفسها لإبراد الرسالة ، فقد كانت تحرص على إنجاز هذه المهمة بنفسها في كل أسبوع؛ وفي أحد الأسابيع توجهت إلى البريد لتبرد رسالتهـــا الأسبوعية ، وفي طريق عودتها عرجت على المنتزه، فقد كان اليوم صحواً والشمس دافئة نقية ، ودخلت المنتزه فلاحظت انه يكاد أن يكون خالياً من الرواد لولا بعض المتنزهين توزعوا في أنحائه البعيدة ، ولذلك فلم تشأ نقاء أن تذهب إلى ركن منعزل ، فقد كان هدوء المنتزه يوحي بالوحشة ، وفكرت في أن تعود من حيث أتت ، ولكنها فطنت أن ذلك سيبدو منها حركة غريبة بعد أن لاحظ دخولها الجالسون ، فجلست وهي تشعر بقلق وحيرة ولم تكن تحمل معها كتاباً في هذه المرة ، وجاء الساقي ليسألها عن طلبها فلم تر بداً من أن تطلب إليه رجاجة من العصير ، وصممت على أن تترك المنتزه قبل أن تشربه ، ولكن بعد دفع ثمنه ، وفي تلك اللحظة سمعت ورائها صوتاً يقول :

ـ يا لها من فرصة سعيدة جمعتني بك مرة اخرى .

وكان صاحب الصوت يتقدم حتى واجهها ، فرأت إنه ذلك الرجل الفضولي الذي تطفل عليهـا في المرة السابقة ، فسرت رعدة خفيفة في عروقها وهزت رأسها قائلة :

ـ لعلك غلطان يا سيدي ، ثم أدارت وجهها عنه .

فقد رأت أفضل طريقة لإزاحة هذا الرجل هو تجاهله التام، ولكنه اتخذ له مجلساً بالقرب منها وضحك وهو يقول :

ـ لا أظن أن ذاكرتك ضعيفة الى هـذا الحد ، أما أنا فقد انطبعت صورتك على شغاف قلبي منذ النظرة الأولى ، وها أنا مستعد لبذل روحي وثروتي التي تعد بالملايين في سبيل نظرة واحدة منك يا آنسة !.

فانتفضت نقاء غضباً ، وهمت أن تقوم فتنصرف دون أن ترد عليه ، ولكنها خشيت أن يظن فيهـا الضعف أو ينسب فرارها الى الخوف فيشجعه ذلك على التعرض لها فيما بعد ، فتمالكت نفسها وقالت :

ـ الآن ذكرتك يا رجل ! فإن نغمة المادة التي تشـع على كلامك تميزك عن غيرك من الرجال .

ورأى محمود أن الفرصة مواتية لكي يسترسل في بيان مقدار ثروته فقال :

ـ نعم ، أنا أقرك على هذا . . فقد انصبغت كلماتي بصبغة المال .. فالثروة إذا تكاثرت بدت علاماتها واضحة على جميع تصرفات صاحبها .

تودت نقاء لو ضحكت على هـذا الرجل المسكين الذي لا يملك شيئاً غير المال ، والذي يعني أن المال هو أقوى سلاح ، ولكنها لم تشأ أن تضحك امام هذا الرجل الفضولي ، حتى ولا ضحكة استهزاء ، وشعرت أن لديها ما تقوله له قبل أن تقوم ، وشعرت ايضاً أن عليها أن تقول ذلك لتفهمه أن بين

بنات الإسلام من لا يغرها المال ، ولا تخدعها الثروة ، ولهذا فقد أجابته قائلة :

ـ من المؤسف حقاً أن يصطبغ الإنسان بطابع الثروة ، وأن تبدو عليه دلائلها في جميع احواله وتصرفاته ، لأن ذلك لا يتم إلا إذا اقفرت شخصيته من جميع العلامات الأخرى .

ـ إن المال الذي يلبس شخصية صاحبه أي لبوس شاء ، ويبرزه بأي شكل رغب .

ـ أبداً فإن المال لا يتمكن أن يخلع على صاحبه أي إطار ، اللهم سوى إطار الأناقة ، وهذا هو أتفه شيء بالنسبة الى الرجال .

وبحركة لا اختيارية رفع محمود يده نحو شعره الذي كان مصففاً بأحدث طريقة ، وكانت خصلات منه تتدلى على جبينه ، وقد دهنت وصبغت ، في الوقت الذي كان شعره الباقي يقرب من السواد ، وكأن كلمات نقاء عن إناقة الرجال وميوعتهم قد أثرت عليه دون أن يشعر . . وأحست نقاء بحركته هذه ، فاسترسلت تقول :

ـ إن الكرامة مجردة قد تجر إلى الثروة ، والاستقامة وحدها يمكن أن تأتي بالثروة ، والشخصية القوية بمفردها ربما ساقت صاحبها إلي المال ، ولكن المال وحده لا يتمكن أن ياتي بأي ميزة من هذه المميزات .

واستغرب محمود لهجة نقاء الصادقة ، وكلماتها المركزة ، وعجب أن يبلغ الرياء بهذه الفتاة هذا المبلغ ، وتردد لحظة قبل أن يرد قائلاً :

ـ أنت تتحدثين بأسلوب غريب لا ينطبق وشخصيتك .

وهنا تلكأ محمود قبل أن يردف كلمة شخصيتك بكلمة الفاتنة ، ولم يستطع أن يفهم سبباً لهذا التردد ، وهو يحدث فتاة معروضة للمساومة حسب ما كان يعتقد . . وكادت نقاء أن تنهض بعد هذا الجواب ، ولكن دافعاً خفياً كان يشدها إلى الجلوس ويدعوها الى أن ترد على هذا الرجل وتجعله يقف بجرأته عند حد . . فردت عليه بنفس لهجتها التهكمية قائلة :

ـ أنا لا أتحدث بأي اسلوب غريب ، وليس في كلماتي أي معنى جديد ، وانما أنت هو الذي يتحدث بأسلوب غريب عن الرجولة، بعيد عن العزة والكرامة، ولا أدري ما الذي يدعوني إلى الرد عليك وكلماتك لا تستحق عندي أي رد أو تعليق ، ولكن العاطفة الإنسانية هي التي دفعت بي الى أن أُنبهك من غفلتك ، فاعلم يا سيدي ! ان الشخص الذي يركز حياته ويبني نجاحه على المال وحده ويعقد مستقبله على تاثير الثروة والغنى يكون ضائعاً لا محالة ، فإن المواد الأرضية معرضة للفناء مهما عزت وغلت ، فلا تظن بعد الآن انك بما تملك من ثروة تستطيع أن تتطفل على من تشاء وتستحوذ على من تريد .. أنت واقع

تحت تأثير مفهوم خاطىء ، بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع .

وما ان أتمت كلماتها هذه حتى وقفت واتجهت نحو باب الخروج ، وخلفت محمود وراءها ، وقد أخذ بهذا السلوك الغريب من هذه التي كان يحسبها غانية لعوباً .

الفصل الســـابع عشر

أما سعاد فقد كانت تود لو استطلعت من محمود نتيجة فعاليـــاته .. ولكنها لم تجرأ على ذلك ، لا لشيء لكي لا تلقي في قلب محمود الشك من إرشاده إلى هـــذه الفتاة ، فقد كان عليها أن تتجاهل أن كلامها كان له أي تأثير على محمود ، والشيء الذي لاحظته أن محمود لم يكن يؤم البيت إلا ساعة او ساعتين في النهار وعرفت أن اوقاته موزعة بين المنتزه وحدائق الغوطة ، وكان منظر سنية وهي غضبى مقطبة أكبر تسلية لها على تصور محمود ، وهو واقع في حبائل نقاء . . فقد كانت سنية تعيش في هم مقيم ، بعد أن انشغل عنها محمود ، وانصرف الى ملاحقة نقاء . . وفي مرة عاد محمود الى البيت فلاحظت عليه سعاد انه حائر مشوش الفكر ، وانه كثيراً ما يشرد بين آونة وأخرى فشاع الاضطراب في نفس سعاد ، وخشيت أن يكون محمود قد فشل

في محاولاته او ضعف أمام عناد نقاء، ولكنها لم تتوصل الى طريقة تمكنها من فهم الواقع، وبعد كثرة تردد قررت أن تذهب لزيارة نقاء، فاتصلت بها تلفونياً واستوثقت من عدم وجود زوار لديها ثم استقلت سيارتها الى بيت نقاء ولم تخرج نقاء لاستقبالها، بل كلفت الخادمة أن تقودها الى الصالون، وأخبرت امها بعزم سعاد على المجيء وطلبت منها أن تحضر، ولكن امها لم تتمكن أن تجلس مع سعاد أكثر من دقائق، واعتذرت بكونها محمومة ويلزم عليها أن تذهب الى غرفتها لتستريح، وفوجئت نقاء بعزم امها على الذهاب الى غرفتها، وحاولت أن تثنيها عن ذلك، ولكن امها كانت تظن انها بحركتها هـذه سوف تغضب سعاد وتظهرها على نقمتها عليها وعدم اهتمامهـا بوجودها . . وسر سعاد خروج خالتها وانفرادها بنقاء، وارتكبت نقاء وحارت ماذا تفعل إذا عادت سعاد الى كلامها المعهود وهي لا تطيق ذلك مطلقاً، فهي تخشى أن تصدر عنها كلمات تسيء فيها الى سعاد، ولهذا فقد بدأ الارتباك واضحاً عليهـا . . ولاحظت سعاد علائم الاضطراب التي ظهرت على نقاء، فعللت ذلك بتعليل آخر هو أبعد ما يكون عن الواقع . . فبدأت تتحدث وكان حديثهـا يدور حول أذواق الرجال في الجمال، وكلمات الإعجاب التي سبق سمعتها من المعجبين . . وكيف أن كثيراً من الرجال كانوا يلاحقونها بالمدح والإطراء أينما سارت وأي مكان حلت فيه ..

وكانت سعاد تقصد من ذكرها لهذه الحوادث استدراج نقاء

لذكر حوادث مماثلة عسى أن تتوصل الى معرفة شيء عن موقف محمود معها ، ولكن نقاء لم تكن ممن يحرفهن الحديث ، فلم تعلق على أحاديث سعاد باي شيء .. ولهذا فقد انصرفت عنها سعاد وهي على ثقة من أن محمود قد تمكن من التغرير بنقاء ، وإلا لكانت حدثتها عنه وعن مغازلته لها . . وحدثت سعاد نفسها قائلة : إن نجاح محمود قد أصبح عندي أرجح من فشله ، فليس من المعقول أن تقاوم هذه الفتــاة الصغيرة إغراء محمود وترفض ثروته وملايينه .

وفي البيت افتقدت سعاد خادمتهـا سنية ، وكانت تفتقدها كثيراً في الأيام الأخيرة ، وخمنت انها في سبيلها الى التجسس على محمود والتعرف على فاتنته الجديدة . . والواقع أن سنية كانت تتعقب سيدها في أغلب الأيام اترى غريمتها التي سلبته لبه ، وقد شاهدته في أحد الأيام يتحدث مع نقاء ، ولكنها لم تصدق أن هذه الفتاة المحتشمة الوقور هي التي أغرت سيدها وسحرته .. وظنت أن جلوسه معها مجرد مصادفة . ولهذا فقد استمرت تتعقبـــه وتتجسس عليه .



الفصل الثامن عشر

كانت رسائل إبراهيم لا تفتأ تصل إلى نقاء في نهاية كل أسبوع ، وكانت جميع رسائله تحمل معها الأمل في إسراعه بالعودة وتقليص مدة الفراق . . وكانت نقاء قد تجنبت الذهاب الى المنتزه بعد تكرر مصادفة محمود هناك ، ولكنها في أحد الأيام أحست بحاجتها الى الترفيه والتنزه ، فقصدت الى حدائق الغوطة وهي على اطمئنان من أنها ستكون في منجاة من تطفل ذاك الرجل الفضولي هناك ، فلا بد أنه من رواد ذاك المنتزه بالخصوص ، وفي الحدائق لفت نظرها منظر امرأة شابة ، مهلهلة الثياب ، بادية الشحوب ، ذابلة الأجفان ، وهي تحمل على يدها طفلاً لا تكاد ملابسه الممزقة تستر جسمه الهزيل ، وكان منظر هذه المرأة يجسد البؤس والفاقه في أجلى مظاهرهما ، وهي تدور على الجالسين تستدر عطفهم ليجودوا عليها ببعض النقود .. وعندما

لاحظت نقاء انها تتقدم نحوها سارعت الى فتح حقيبتها لتخرج منها ما تعطيه لهذه المسكينة قبل أن تسال منها ذلك، وأخرجت منها بضع دراهم وهي على عجل وارتباك ، فقد أثر عليها منظر تلك المنكودة ومدت إليها يدها بالمال ، وأشاعت هذه البادرة من نقاء الغبطة على وجه المرأة المسكينة ورفعت رأسها الى السماء وكانها تدعو لنقاء ، ثم تركتها لتكمل دورتها في أنحاء الحديقة . وأطرقت نقاء برأسها وهي تفكر في البؤس الذي كان يشمل هذه الأم المنكودة ، ولكنها انتبهت من اطراقتهـــا على صوت رجل يقول :

ـ كم أنت كريمة يا آنسة ؟ ! هل كانت هذه البائسة تستحق أكثر من بضعة قروش ؟! .

فاستدارت نحو الصوت لترى محمود .. وأفزعها أن يكون هذا الرجل قد لاحقها الى هناك . . وعلت وجهها صفرة باهتة ولأول مرة شعرت بالخوف ، فقد كانت تعلل لقاءه لها في المنتزه بمجرد مصادفة ، ولكن الآن .. وتلفتت حولها كأنها تريد أن تستنجد باحد .. ولكنها اطمانت إلى حد ما .. حينما رأت أن الحديقة مليئة بالرواد وإنها ليست وحدها أمام هذا الملحاح .. فانتفضت واقفة وقالت بصوت قوي لثقتها بنفسها :

ـ أما احتفظت بنصيحتك لنفسك ، وهلاّ عرفت انك تتطفل باسلوب رخيص ؟! .

وهنا صمم محمود أن يخرج من التلميح الى التصريح، وأن ينهي هذه المناورات المملة ، فقد أعياه التردد والشك ، فقال :

ـ أنا لا أتطفل مطلقاً ، وإنما أنا في الواقع ...

وأراد أن يقول : « اساوم » ، ولكن نظرات نقاء الملتهبة منعته من إتمام جملته ، فردد قائلاً :

ـ في الواقع .. في الواقع ..

فصاحت به نقاء قائلة :

ـ إذاً فماذا تسمي فضولك هـذا يا رجل ؟ ! أنت رجل غريب لا أعرف عنك حتى اسمك .. فكيف تسمح لنفسك أن تتدخل في شؤوني الخاصة ؟! .

ـ ولكني .. اعرف ..

ومرة اخرى لم يستطع أن يكمل جملته ، فقد كان ينوي أن يقول : ولكني أعرف عنك كل شيء .. ولكن منظر نقاء وهي في ثورتها تلك ، جعلته لا يجرؤ على التصريح ، فسكت ايضاً .. وأحست نقاء أن عليها أن لا تدع هـذا الرجل قبل أن تلقنه درساً لا ينساه ، فصرخت به قائلة :

ـ ما لك لا تستطيع أن تتكلم ؟ ! أو ليس المال قادراً أن يطلق عقدة لسانك ؟ ! الويل لك من الدرك الذي أنزلك المال إليه .. ارجع الى نفسك ، وانقذها قبل فوات الأوان ، فلعل هناك في ضميم روحك نقطة من خـير . . حاول أن تنحي بريق

الذهب من أمام عينيك ، لترى الحيـاة الحرة الشريفة كيف تكون ..

فخفض محمود رأسه وقال :

ـ أنا مستعد لتحقيق جميع شروطك وإنجاز كل رغباتك ، فإن ثروتى تفوق ثروات الآخرين بمراتب ..

وصعقت نقاء لهذه الكلمات ، ولم يسعها إلا أن تصرخ فيه :

ـ يا لك من رجل .. مع من تظن انك تتكلم ! وأي فكرة شيطانية أوحت إليك بذلك ؟ ! كنت آمل في إصلاحك أول الأمر ، أما الآن فإنك لست اهلاً للإصلاح ، فاذهب إلى حيث يقودك شيطانك ، ولكن شخص طريقك جيداً بعد الآن ، وفي المرات اللاحقة ، فوربي لولا هـــذه المسكينة التي أرى خاتم خطوبتها حول اصبعك لسلمتك الآن إلى أيدي الشرطة ، ولكن تلك المسكينة ما ذنبها إذا كان زوجها أحد ذئاب البشر !! ولهذا فأنا لا أريد أن أسبب لها فضيحة ..

وتهدج صوت نقاء فلم تستطع أن تتكلم أكثر من ذلك ، فاستدارت ، وتوجهت نحو باب الخروج .

أما محمود فقـد غير مجلسه وجلس في الطرف الآخر من الحديقة ، ولكنه لاحظ أن المرأة المنكودة التي كانت تستمطي قد توقفت قليلاً امام الكرسي الذي كانت تجلس عليه نقاء ، ثم انحنت والتقطت شيئاً من الأرض وأخفته في قبضة يدها ، فرأى

أن الفرصة قد واتته للاحتكاك بنقاء مرة اخرى . نهض من مجلسه نحو المرأة المسكينة وهو يصرخ فيها قائلاً :

ـ دعي ما أخذتيه يا سارقة .

وحاولت المسكينة أن تفر ، ولكن صوت محمود كان قد جمع حولها جمعاً من الناس ، وفتح محمود يدها عنوة ليجد فيها قرطاً من الماس الثمين . فالتفت الساقي وهو يقول :

ـ اسرع باستدعاء الآنسة التي كانت تجلس هناك ، فإن هذا القرط يعود إليها بلا شك .

وأسرع الساقي لاستدعاء نقاء، فجاءت لترى المرأة المنكودة وقد أحيطت بعشرات من النـــاس وهم يوزعون عليها الشتائم والسباب ويحاولون أخذها إلى مركز الشرطة ، واتجهت نظرات المرأة المسكينة نحو نقاء ، وهي تعلم أن القرط يعود إليها ، ولذلك فقد قرأت نقاء في نظراتها معنى الاسترحام والخوف والاستعطاف ، وكانت المنكودة ترتعد كريشة في مهب الريح ، حتى انها لم تعد تتمكن من إمساك طفلها ، فتعلق بعنقها وهو يضج بالبكاء ، فتساءلت نقاء : ما الخبر ؟ .. فارتفعت الأصوات وهي تردد : انها سارقة ، سرقت قرطك الماسي . فتقدمت نقاء نحو المرأة ، وكانت لا تزال متمسكة بالقرط في قبضة يدها ، فأمسكت بيدها في لطف وقالت بنغمة عذبة رقيقة :

ـ أريني القرط يا أختاه .

ولم يسع المرأة أن تمتنع أمام لهجة نقاه العاطفية ففتحت يدها وألقت نقاء نظرة على القرط ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ انه كان قرطي ولكني اعطيته لها ، فهي ليست سارقة ابداً .

فظهرت علامات الدهشة على المجتمعين . وكانت يد المرأة المسكينة لا تزال مفتوحه وفيها أحد القرطين ، فعادت نقاء وأطبقت يدها على القرط وقالت :

ـ انه ملكك يا أختاه ، فتعالي واخرجي من الحديقة .

فتهاوت المسكينة على أقدام نقاء تريد أن تبللها بدموع الندم والشكر ، ولكن نقاء أنهضتها وهى تقول :

ـ قومي يا أُختاه ، أنا لم أقم إلا بأقل الواجب ، لم يكن لدي ما أُقدمه لك فقدمت قرطي ، هيا واتركي المحل يا أُختاه .

ثم أخذت بيدها وجرتها نحو الباب ، والجميع يتابعونها بنظرات الاستغراب .

أما محمود فقد تبعها بنفسة ، وهو لا يكاد يصدق ما رآه ، وفي خارج الحديقة أبصر نقاء تجر المرأة المسكينة إلى ركن في الشارع ، وتخرج القرط الثاني من حقيبتها وتقدمه لها ، وهي تتكلم بكلام لم يتمكن أن يسمعه ، ولكنه رأى ابتسامة ملائكية كانت تلوح على وجه نقاء وهي تفعل ذلك ، ثم رآها تهز يد المرأة مصافحة قبل أن تستقل «الأمانة» . . وذهل محمود

وكاد يظن انه في حلم ، فهو لا يصدق أن فتـــاة تعرض نفسها للمساومة ، تقف هذا الموقف النبيل ، وإن المرأة التي تتصيد المال تتنازل عن قرطيها الماسيين بهذه السهولة وبدافع من الرحمة.

واستقل سيارته وهو غارق في خضم الأفكار ، وكانت أفكاره مشوشة مختلطة ، وفي البيت اغلق عليه باب غرفته لكي لا يكدر تفكيره أحد ، وأخذ يراجع تصرفات نقاء ويستعيد كلماتها وعباراتها ويتمثل لهجتها الصـــادقة وأُسلوبها الواضح المستقيم ، وتذكر نظراتها النارية وصوتها المتهدج . . ولم يسعه بعد ذلك إلا أن يعترف بأن هذه أمور لا يمكن أن تكون مصطنعة أو مزيفة ، ولا بد أن يكون قد وقع هو نفسه في خطأ فظيع . .

ولم يتمكن محمود أن يصرف فكرة عن حادثة القرط ، فقد قلبت هذه الحادثة مفاهيمه ، وفتحت امامه آفاقاً جديدة لم يكن يعرفها أو يعترف بوجودها أيضاً . . وشعر أن في الحيـاة معاني سامية كانت خافية عليه . . وإن في هذه المعاني روعـة لا متناهية ، تفوق جميع ما صادفه في حياته من روائع مصطنعة وأحس بالوضاعة وهو يتمثل موقفه من الفتاة، وهو يحشو كلماته الجوفاء بذكر الثروة والمال ، في الوقت الذي لا يهمها فيه أن تتنازل عن قرطيها الماسيين في سبيل التستر على امرأة فقيرة منكودة ، وتذكر الابتسامة الملائكية التي كانت مطبوعة على وجهها وهي تسلم القرط الثاني . . فردد يحدث نفسه قائلاً : حقاً

لست أنا غير رجل تافه في الحياة .. ما أحلى أن يشعر الإنسان بشعور الخير ، ويحس بلذة عمل المعروف ... فهو لم يكن يظن قبل الآن أن لأمثال هذه الفتاة وجوداً واقعياً ، كان يعتقد أن الخير والفضيلة ليس لهما وجود إلا في أذهان المفكرين .. وليست سوى مفاهيم خيالية لا يمكن لهـا أن تظهر إلى حيز الوجود ..

الفصل التاسع عشر

عادت نقـــاء إلى البيت ولم تشأ أن تحدث أمها عن حادثة القرط ، لئلا تأسف على ذلك ، ولكنها كتبت عن الحادثة بإسهاب في رسالتها الأسبوعية إلى إبراهيم . وجاء جواب إبراهيم مليئـاً بالمدح والتشجيـع ، وقد ذكر في آخر رسالته : انه سوف يبتاع لها قرطاً أثمن منه .. ومضت أسابيع ثلاثة كانت كفيلة بطمس معالم حادثة القرط والرجل الفضولي من ذهن نقاء ، ولم تكن سعاد قد اتصلت بها خلال هـذه الأسابيـع ..

وفي أحد الأيام اقترح والد نقاء على ابنته أن تصحبه إلى أحد المنتزهات ، فلم تر بدأً من إجابة طلبه ، ولم يهمهـــا تعيين المكان الذي يذهبان إليه ما دامت مع أبيها ، وقد اختار منتزه الجمهورية فوافقته على ذلك ، ولكنها عندما دخلت المنتزه رأت أن عليها أن تنفرد عن أبيها ، فقد

كان المنتزه يعج بالرواد ، وقد صادف أبوها كثيراً من اصدقائه وأصحابه، ولم تشأ أن تفصل أباها عن اصدقائه، فاعتذرت منه، وذهبت إلى ركن منعزل ، ولكنها أحست بوحشة ، لانفرادها هناك على خلاف عادتها من قبل . فقد بعثت حادثة ذلك الرجل المتطفل الرعب في قلبها وجعلتها لا تطمئن الى الانفراد ، ولذلك فقد صممت على أن تنهض من مجلسها المنعزل وتتخذ لها مجلساً هو أقرب للمجتمع من هـذا المجلس النائي ، وفعلاً فقد نهضت واتجهت نحو قلب المنتزه ، غير أن صوتاً خافتاً تردد في أذنيها قائـلا :

ـ من فضلك يا سيدتي كلمة واحدة لا غير ..

ولم تتمكن نقاء أن تعرف صاحب الصوت ، فتوقفت عن السير والتفتت لترى من الذي يخاطبها ، فأبصرت بمحمود وهو واقف على بعد أمتار منها فاستدارت بعنف ولم ترد عليه ولكن صوته لاحقها متواسلاً :

ـ كلمة واحدة يا سيدتي ! أنا آسف جـداً . . من فضلك لحظة واحدة ..

واستمرت نقاء تسير دون أن تلتفت إليه ، ولكنها شعرت أنه يتبعها وهو يردد :

ـ انك ملاك طاهر يا سيدتي ، فلا تغلقي طريق الخير من أمامي .. لا تتجاهليني لكي لا يخفت بصيص النور الذي أشرق على جنبات روحي .. كلمة واحدة لا غير ..

فرأت نقاء أن عليها أن تقف ، فمحدثها مندفع وراءها لا يريم وهي لا تريد أن تجره الى حيث يجلس أبوها وأصحابه .. فتوقفت والتفتت نحوه قائلة :

ـ يا لك من ملحاح ...

ولكنها لم تكد تراه حتى استغربت منه علامات الندم التي كانت تلوح عليه .. كما انها كانت قد استغربت عباراته المهذبة .. فردد محمود قائلاً :

ـ أنا آسف يا سيدتي . . فقد أوقعوني في غلطة لن اغفرها لنفسي أبد الدهر ، انت لا تعلمين الآلام التي قاسيتها . . وكان أملي كله منوطاً برؤيتك وطلب العفو منك ، فهل تمنين عليّ بذلك ؟ .

وتفحصته نقاء بعقلها ملياً ورأت دلائل الصدق واضحة على قسمات وجهه فردت عليه قائلة :

ـ أما بالنسبة لي فقد غفرت لك يا سيدي فأنا لا أغضب على أمثالك من الرجال .. ولكن أرثي لهم من صميم قلبي ، والرثاء لا يوجب النقمة ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟ قولي بالله عليك كلمة أخرى مهما كانت .. فأنا على استعداد لسماع كل شيء .

ـ أقصد أنك يجب أن تطلب العفو من ربك اولاً ، ومن روحك ثانياً . . فالروح عنصر طاهر كان يمكن لها أن تكون

في أهاب تسمو فيـــه على الملايين من البشر ، ولكنك ظلمتها وأسرتها بين جدران جسمك الذي لم يجلب لها سوى العار ، فالروح لا يهمها المال ولا تعنيهـا الثروة ولا تهوى غير العزة والكرامة . . هذه هي روحك التي لم تتجه نحوها بعد ، فقد ألهاك الجسد الفاني عنها وغرك المال المتلاشي عن إجابة طلباتها ، ولهذا فإن عليك اولاً أن تتجه الى روحك فترضيها وتستغفر منها كل ما مضى .. عند ذاك فقط سوف تشعر براحة التوبة .. ثم ما الذي دعاك الى الندم ؟ .

ـ الندم .. فقد رأيتك في ذلك اليوم وأنت تتنازلين عن قرطيك الماسيين لا لشيء إلا الستر على المرأة المسكينة ، وبدافع من الرحمة والإحسان ، فما شككت يومها انك ملاك طاهر في صورة إنسان ..

وتذكرت نقاء حادثة القرط فابتسمت وقالت :

ـ لم يكن الأمر مهماً الى هـــذا الحد ، فقد كان من واجبي كامرأة وكمسلمة وكبشر أن أفعل ذلك .

وجمدت عينا محمود على فم نقاء وهي تتكلم ، ثم شعر انها في سبيلها للانصراف .. فعز عليه ذلك وود لو استمرت تتكلم واستمر هو يستمع فقال :

ـ أنا أجهل طريقي الى روحي فلم يسبق لي أن توصلت إليها من قريب او بعيد ، فقد أعمتني سطوة الجسد عن كل شيء !

ـ انه طريق واضح لا يكلفك سوى تجاهل سلطان المـــال والجسد عليك .

ـ انت ترينه واضحاً بلا ريب ، ولكنني أنا الذي لم أعرف طيلة حياتي سوى إطاره ، أنىّ لي أن أتعرف الى الروح ، وأن أصل الى واقعها في الحياة !

ـ انت تشعرني بأنك لست بعيداً عن الحقيقة .. البعد الذي تتخيلهُ انت ، راجع نفسك مرة اخرى لترى انك قريب منها وقريب جداً ..

ـ وكيف لي أن أراجع نفسي وقد طمستها يد النزوات والهفوات ؟ !.

ـ النزوات مهما كانت لا تتعدى أن تكون نزوة عابرة ، والهفوات وإن عظمت ما هي إلا أحداث مندثرة ولكن روحك لا تطمس ولا تختفي أبداً .

ـ إذن انت تظنين أن من الممكن إصلاح نفسي وتهذيبها .

ـ طبعاً وبسهولة جداً ، فإن عوامل الشر عوامل سطحية ولكن عوامل الخير ثابتة راسخة في الأعماق .

ـ هذا إذا كانت عوامل الخير موجودة لدي ..

ـ إن لكل إنسان عوامل خير وعوامل شر ، والشخص هو الذي يظهر إحدى العوامل ويخفي الأخرى ، ولهذا فهو يتمكن إذا أراد أن يرجع إلى أعماقه ليبرز العوامل الأخرى الى حيز

الوجود ، فقد اتفق أن انقلب الفاسق قديساً ، والقديس فاسقاً .

ـ أحقاً يمكن ذلك ؟ !.

ـ أنا واثقة من إمكان ذلك بالنسبة إليك ، فحاول لترى انك لن تعجز عنه مطلقاً .

وكيف أحاول ذلك ؟ أنا ضائع في خضم الأخطاء !.

وهنا أحست نقاء بأن وقوفها قد طال اكثر مما ينبغي .. ولكن دافع الخير كان يدعوها أن لا تترك هـــذا الرجل الذي يقف على عتبات التوبة . وترددت لحظة بين الواجب الديني والآداب الاجتماعية ، ولكن صوت محدثها كان يصلها قائلاً في تضرع :

ـ نعم أنا ضالع في خضم الخطايا ولست أرى طريقي منها فهل لك أن ترشديني إليه ؟.

وتغلب على نقاء واجبها الديني ، فأسندت ظهرها الى جذع شجرة وقالت :

ـ إن الأخطاء تمحى بالندم والخطايا تغفر بالتوبة ، فأنت إذا راجعت ماضيك واستشعرت الأسف على ما صدر منك ووددت صادقاً لو لم تفعل ما فعلت كنت في مستقبلك وكأنك لم تأت بشيء ، فإن التائب النادم يكون كمن ولدته أمه .

ـ ولكن ثروتي تغرني بالانحراف !.

ـ أبداً .. فالثروة قد تصبح أداة للاستقامة ، وقد تكون وسيلة للخير والصلاح إذا كان لديك ما يساعدها على ذلك من كرامة وإستقامة ، انت سوف تستشعر لثروتك بلذة لم تكن تستشعرها من قبل ، فثروتك قبل اليوم كانت كل بضاعتك في الحياة ، وإذا شعر الإنسان أن كيانه متركز على شيء واحد في الحياة ، خالط سعادته بذلك الشيء عوامل كثيرة من الحرص والخوف عليه .. ولكن الثروة إذا كانت عاملاً ثانوياً وكانت شخصية الإنسان متركزة على أشياء أُخر غير المال ، شعر صاحب المال أن ثروته نعمة إضافية من حقه أن يسعد فيها وينعم .

سكتت نقاء ، ولكن محمود استزادها قائلاً :

ـ أنت تتكلمين بأسلوب رائع لم يسبق لي أن سمعته من قبل !

ـ ولكنك تتمكن ان تسمعه فيما بعد ، فالدنيا تزخر بالأساليب الرائعة من الكلام ، وبالمعاني السامية في التعبير ، أنا لست إلا واحدة من ملايين ، وليست كلماتي سوى نغمة من بين آلاف النغمات الطاهرة العذبة .

ـ وأين أتمكن أن أجد بعض هؤلاء ؟! .

ـ إنهم في كل مكان ، ولا يخلو منهم مكان ، ولكنك لم تكن لتتمكن من التعرف عليهم قبل اليوم ، فقد كنت في سكرة تحت سطوة الجسد والمال ، فإن عوامل الخير أوفر بكثير من عوامل

الشر ، والصلاح أقوى في العالم من الفساد .

وردد محمود نفس كلماتها قائلاً :

ـ عوامل الخير أوفر من عوامل الشر ، والصلاح اقوى من الفساد .

وأردفت نقاء تقول :

ـ نعم وبكل تأكيد ، فما عليك إلا أن تتجه نحو الخير لترى منبعه الرقراق ومعينه الصافي المتدفق .

وأطرق محمود برأسه وكأنه يفكر ، واغتنمت نقاء فرصة سكوته فتحركت وهي تقول :

ـ سوف أتركك الى روحك ، لتحاول أن تفتش فيها عن عوامل الخير المكبوتة ، ولي وطيد الأمل في انك سوف تفعل ذلك بلا ريب ، وأما أنا فأستودعك الله .

ورفع محمود رأسه ليرى نقاء وقد استدارت وتوجهت نحو وسط المنتزه فردد قائلاً :

ـ في امان الله ..

الفصل العشرون

رجع محمود إلى داره وهو يتلذذ بيقظة إنسانيته .. حقاً انه كان يشعر بالندم منذ اللقاء الأخير مع نقاء ، وحقاً انه تعذب كثيراً قبل أن يراها ويطلب منها العفو ، وحقاً انه طيلة أسابيع ثلاثة كان منصرفاً عن مجونه وعبثه . . يفكر في الفتاة التي أساء إليها إساءة فظيعة قبل أن يعرف انها ملاك طاهر وروح عـــذبة . . ولكنه في ذلك اليوم كان يحس بشعور لم يحسه من قبل ، وكان يستعيد كلمات نقاء في ذهنه دون أن يتعمد ذلك ، وكان كمن أخذ يستيقظ مَن سبات عميق .. وود لو طال به المقام مع نقاء فقد حسسته بأفكارها وآرائها .. وأرق في تلك الليلة وهو يقلب في ذهنه ما قالته . . ويحاول أن يركز أفكاره عند كل نقطة من كلماتها وألفاظها ، وشعر أنه مدين نحو تلك الفتاة بهذا النور الذي أخذ يضيء جنبات روحه ، ففتش في جوانب قلبه : هل أنه

يعشق تلك الفتاة أو يهواها ؟ ولكنه لم يجد للعشق في قلبه أثراً ، فالشعور الوحيد الذي يحسه نحوها هو شعور الإكبار والإعجاب فهو يود لو رآها مرات أخرى ولكن لا على حساب العشق والمتعة ، بل لأجل أن يستمد منها قوة وعزيمة . . وصمم على أن يستمر بتردده على المنتزه والحديقة حتى يعود فيلقاها ثانية .

وفي الصباح لم يبرح محمود غرفته مطلقاً ولم يسمح لأحد بالدخول عليه ، فقد كان يعيش في دوامة من الأفكار المتضاربة ، وقد أخذ يستعيد في فكره جميع مراحل حياته ، ويذكر ما الذي جناه من سلوكه وطريقته في الحياة ، وهاله أن يرى أنه لم يحصل على شيء سوى المال . . وحتى المال فلم يحصل عليه هو بنفسه أيضاً فقد ورثه عن أبيه وها هو قد بدد نصفه في مدة عشر سنوات ، وفكر في حاله بعد عشر سنين ، وبعد أن يبدد جميع أمواله على ملذاته وشهواته ، فما الذي سوف يتبقى لديه .. وراح يعدد في ذهنه كل ما قد يجنيه المرء في الحياة من العزة والكرامة والجاه والذكر الطيب والصديق الوفي والزوجة المخلصة . وكان جوابه عن كل هذه الأمور لا شيء ، فهو يعلم أن أصدقاءه لن يحاولوا النظر إلى وجهه إذا أفلس من المال ، وإن مكانته في المجتمع قد انعدمت تماماً ، بعد أن اعتزله وسط شلة من المنحرفين ، وإن كرامته قد أريقت على مذبح الشهوات ، وحتى زوجته ، فهي لن تقيم معه يوماً واحداً إذا تلاشت ثروته . . وهاله أن توصل إلى هذه الحقيقة ، وآلمه ان تكون سعادته

منوطة بالمال حتى في حياته الزوجية ، فهو يعلم أن سعاد لا تحمل له في قلبها أي عاطفة ، ولا يشدها إليه إلا المـــال . . وودّ لو استطاع أن يهرب من هذه الأفكار وأن يعود إلى غفلته الأولى التي كان سادراً فيها منذ سنوات ، ولكن مفاهيم نقاء وأفكارها كانت مسيطرة عليه بصورة لم تكن تمكنه من الفرار ، فهو كان يجهل قبل اليوم أن دنياه التي يعيش فيهـا تعمر بأمثال هذه الروحيات التي رأى عليها الفتاة ، أما الآن وقد وجد أمامه ما كان يظنه مثاليـــاً أو اسطورياً ، فما عليه إلا أن يكونه ، فالأعمى الذي يرتد إليه بصره ، عليه أن يعمل نظره ولا يركن إلى الظلام الذي كان يطبق عينيه من قبل ، وعجب ان تكون أفكاراً وليدة في ذهنه تتمكن ان تصارع أفكاراً عاش معها سنوات ، ولكنه عاد يقول : انه منذ الآن بدأ يفكر . . أما ماضيه فقد كان خلواً من الفكر ، كان سطحيا ، لا يستند إلى جذور . . وشعر بحاجة ماسة إلى لقاء الفتاة مرة اخرى ، فهو يشعر بضيعته وسط مختلف التيارات ، وود لو عرف من تكون تلك الفتاة ليقصد بيتها ، ويستزيدها من الكلام . . وفجأة فكر في سعاد ، وفي السبب الذي دعاها أن تخدعه على هذه الصورة ، وتدفع به نحو هذه الفتاة الطاهرة ، ولم يتمكن أن يفهم لذلك سبباً ، أو يأتي بتبرير معقول ، سوى أن بعض مشاعر الحقد هي التي دفعتهـــا إلى ذلك ، وعجب أن تحقد سعاد على تلك الفتاة وليست هي ممن يعيشون حياتها أو يرتادون مجتمعها ، ولكنه

عاد ليقول : إن أحقاد سعاد لا تقف عند حد ، ولا تقتصر على أشخاص معدودين ... ولذ له أن يتخيل سعاد وهي تتحرق شوقاً لفهم النتيجة ، ولكنها لا تتمكن من السؤال ، وصمم على أن لا يدعها تتوصل إلى معرفـــة أي شيء مهما حاولت ذلك ، وفعلاً فقد غلف وجهه بغلاف لم تتمكن سعاد أن تصل من ورائه إلى الحقيقة ، وحاولت مراراً أن تستدرجه إلى الكلام ، ولكنه كان يروغ عن الحديث ، وقد أعجبه صموده هذا أمام سعاد ، فلم يكن ليعهد بنفسه المقدرة على ذلك من قبل . وآمل انه سوف يتمكن أن يثبت كيانه الخاص أمامها في الحياة .

الفصل الحادي والعشرون

رجعت نقاء إلى البيت وهي تشعر براحة نفسية ، وتحس انها قد أدت واجبهـــا الديني والأدبي تجاه ذلك الرجل ، وفي تلك الليلة كتبت إلى إبراهيم تفصيل الحادث وموقفها من الرجل الغريب ، وجاءها الجواب من إبراهيم و وكان يمتدح فيه موقفها الشريف الواضح ، وقد كتب لها قائلاً : « ألم أقل لك انك تتمكنين أن تجاهدي يا نقاء ! ألم أقل لك أن الجهـــاد ليس وقفاً على الحروب فقط ؟ فامضي في جهادك يا عزيزتي ! مكللة بالغار ، مجللة بأبراد العفة والفضيلة .. » وزاد هـــذا الجواب ثقة نقاء بنفسها ، واطمئنانها إلى سلوكها .

وفي مرة خرجت من البيت ، قاصدة زيارة خالة إبراهيم ، فقد كانت تكثر من التردد عليها في أيام غيبة إبراهيم . ووصلت نقاء إلى باب الدار وقرعت الجرس مراراً دون أن يرد عليها أحد، واستغربت

أن تكون خالتها قد خرجت من الدار وهي لا تخرج إلا لماماً ، فانتظرت لحظة ثم أعادت قرع الجرس ، وفي هذه المرة سمعت صوت حركة في الداخل ، وفي اللحظة التي كانت تفتح فيها الباب ، برزت من جانب الشارع سيارة محمود ، ولكن نقاء لم تنتبه لذلك وأسرعت إلى الدخول ، أما محمود فقد أبصر بها لأول وهلة وصمم على أن لا يبرح الشارع، حتى تخرج مرة اخرى، سواء كان هذا بيتها أو كانت زائرة فيه ، وأطالت نقاء جلوسها هناك ، وفي تمام الساعة الثانية عشرة انصرفت من بيت خالتها ووقفت على رصيف الشارع تنتظر سيارة تقلها إلى البيت وفجأة وقفت أمامها سيارة نزل منها محمود ، وراعها التغير الذي طرأ على هذا الرجل ، فقد كان يرتدي بدلة زرقاء غامقة لا يزينها أي شيء وشعره مردوداً إلى الوراء ببساطة ، كما أن الخصلات التي كانت تتدلى على جبينه قد اختفت .. وتأخرت نقاء خطوات .. ولكن محمود قال بصوت هادىء رصين :

ـ عفوك يا سيدتي ! إذا كنت قد أزعجتك برؤيتي ، لا تظني اني سوف أحاول أن أدعوك إلى الركوب معي في سيارتي ، أو أعرض عليك إيصالك إلى البيت ، أبداً . . لن أقوم بشيء من هذا ، فأنا أعلم أنك سوف لن تلوثي طهرك بمصاحبتي .. ولكن أريد أن احدثك فقط ..

وأسعد نقاء أن تجد هذا الرجل المغرور المتغطرس الذي لم يكن يتكلم إلا عن الثروة والمال وقد عاد إنساناً مهذباً ينطق

صوته عن الصدق والإخلاص ، واحتارت ماذا تفعل . . ولم تر بداً من أن تقول :

ـ وأى حديث تريد أن تحدثني به يا سيدي ؟ !

فتردد محمود لحظة ثم أجاب :

ـ أنا أخطات التعبير ، فأنا لا أريد أن أتحدث . . ولكن أريد أن استمع، فقد كان لكلماتك الماضية أعظم الأثر في روحي وفكري . نعم ، روحي التي وجدتها أخيراً .

ـ وعلى أي حال وجدت روحك يا سيدي .. أي شيء كانت تدعوك إليه ؟ .

ـ إلى الخير والصلاح ، وإلى انتشالي من حضيض الرذيلة وتجنيبي خطر الانحراف .

ـ ألم أقل لك ان روحك خيرة ؟ . وانك كنت تظلمها في الماضي .

ـ ليتني أكون على ثقة من ذلك .

ـ إن هذه المشاعر التي تحسها هى الدليل على ذلك .

وبدا وجه محمود وكأنه وجه طالب يؤدي الامتحان لأول مرة ، وتردد مدة ثم تمتم قائلاً :

ـ ولكنني ضائع لا محالة ..

ـ لماذا تظن ذلك وتفكر فيه ؟ ! أنت الآن أبعد ما تكون

عن الضياع . . فأنت منذ الآن موجود كما لم توجد من قبل ، إن حياتك الواقعية ابتدأت منذ وقعت على حقيقة روحك بين مختلف التيارات ، انت لم تكن لتحيا في الواقع من قبل ، ولكن أموالك هي التي كانت تحيا وتحييك معها ، أما الآن فسوف تحيا أنت لا لتحيا الثروة وتعيش لتتصرف فيها لا تتصرف هي فيك، أنت واقف على أبواب الحياة الواقعية لا الحياة المزيفة الضائعة .

وهنا مرت سيارة « الأمانة » فحاولت نقاء أن تركب فيها ولكن محمود توسل إليها قائلاً :

ـ لا ، ليس الآن . . لا زلت أطلب المزيد ، أنا بعيد العهد عن الحياة الحرة الكريمة ، عريق بمهاوي الضلال والفساد وأخشى أن لا تهبني هذه الكلمات القصار ، الصمود الكافي الذي أحتاجه في هذا الصراع .

فرأت نقاء أن عليها أن تجيبه إلى طلبه ، وإلا فستكون هي المتجنية عليه فقالت :

ـ أنت الآن قد اتجهت إلى الخير وتطلعت إلى أفق الكمال ، فما عليك إلا أن تقرأ الكتب المهذبة للروح والفكر والعقيدة .

ـ ارشديني إليها فأنا لا أعرف عن الكتب والكتاب شيئاً ؟.

فأخذت نقاء تعدُّ له أسماء بعض الكتب، وأرشدته إلى تتبع نتاج بعض الكتاب ، وظنت أن مهمتها قد انتهت ولكنه قال :

ـ ألا يمكن لي أن أعرف من يكون ملاكي الهادي لكي أفزع

نحوه عند كل مشكلة ؟ فحياتي معقدة مليئة بالمشاكل والآلام ولن أتمكن أن أسيرها كما أريد بسهولة .

فضحكت نقاء ضحكة قصيرة ثم هزت رأسها وهي تقول :

ـ أما هذا فلا ...

ـ ولكن . .

ـ ولكن ماذا ؟ !.

ـ أقصد أن شعوري نحوك لا يتعدى شعور الغريق نحو المنقذ، والمريض نحو الطبيب ، أنا أنظرك إليك كإشعاعة من رحمة اشرقت على جنبات روحي ، فهلا أرشدتيني إلى مطلع ذلك النور ؟ .

ومرة أُخرى هزت رأسها بإصرار وقالت :

ـ لا ، إن هذا لن يكون . .

ـ ولماذا ؟ !

ـ لأني لا أستقبل في بيتي رجالاً أجانب .

ـ أنا واثق من هذا ، ولكن عندي ما أقوله لك ..

ـ أي شيء مثلاً ؟.

ـ مشاكلي الخاصة لا تتسع لنقلها وقفة على جانب الطريق .

ـ أنا آسفة ، ولكن ما في اليد حيلة .

ـ وأخيراً ؟.

ـ لا شيء ..

ـ إذن فما الذي عليّ أن أعمل ؟.

ـ إقرأ الكتب التي دللتك عليها ، فإن فيها أكبر غـذاء روحي ، يغنيك عن كل شيء ..

وفي هذه اللحظة مرت « الأمانة » فركبت فيها متوجهة نحو البيت .. ووقف محمود يتابع سيارتها بنظره حتى اختفت في منعطف الطريق ، وعجب لنفسه كيف لم يحاول اللحاق بها في سيارته ليتعرف على بيتهـا ويعرف من تكون ، ولكن عاملاً غريباً منعه من ذلك وتساءل في حيرة : هل هذا الذي يعبر عنه بالشهامة او الكرامة ؟.

وعلى كل حال فقد استقل سيارته ، وتوجه إلى سوق الكتب وحرص على أن يشتري كل كتاب ذكرته له نقاء ، ومؤلفات الكتّاب الذين عددت أسماءهم . ورجع إلى البيت وهو محمل بأنواع الكتب ... ورأته سعاد من نافذتها وهو يدخل الدار ، وقد حمل في كلتا يديه لفافات ثقال ، وفكرت ما عسى أن تكون هذه اللفافات ؟ . . وخطر لها كل شيء عدا الكتب . وكانت قد لاحظت على زوجهـا تغييراً كلياً في الأيام الأخيرة ، وركوناً إلى العزلة والانفراد ، فلم يشهد ضمن هذه المدة أي احتفال ، بل ولم يذهب إلى أي مسرح من المسارح ، وكان دائم التفكير ، طويل الشرود ، ولم تتمكن سعاد أن تفهم لذلك سبباً ،

فهي حتى ولو افترضت أن محمود قد فشل في محاولاته مع نقاء .. لم تكن ترى أن فشله يستوجب منه هذا التغير الفجائي ، فطالما فشل في غزواته الغرامية من قبل ، وخطر لها أنه عاشق . ولعل التي يعشقها هي نقاء . ولكنها عادت فاستبعدت أن يعشق محمود وهي تعهده سطحياً في جميع الأمور ..

وفي مرة استدعت سنية كانت الأخيرة قد نحلت وظهر على وجهها شحوب باهت ، وسر سعاد أن تراها كذلك ، وهي التي طالما أشعلت في فؤادها نار الحقد والغيرة وصممت سعاد على أن تصارح سنية بكل شيء ، فقالت :

ـ لقد دعوتك يا سنية ! لكي أكون معك صريحة فصارحيني أنت ايضاً ولا تخفي عني شيئاً ..

ـ وبماذا أصارحك يا سيدتي ؟! .

ـ إن سيدك منذ اسابيع وحاله ليس على ما يرام ..

ـ من أي ناحية ؟.

ـ أنا لا أحب منك التغابي .. أنا أعلم موقفك من محمود وموقفه منك ، وأنت تعلمني ايضاً انه زوجي ولي الحق في تتبع أحواله .

ـ تماماً كما تقولين يا سيدتي .

ـ طيب .. الآن أعود إلى كلامي الأول .. ألم تلاحظي على محمود تغيراً في هذه الأسابيع ؟.

ـ وكيف لا وقد تغير سيدي كثيراً ..
ـ وما عساه يكون السبب ؟.
ـ ...

ـ أجيبي يا سنية ! فأنا لن أفوه امام محمود بحرف واحد مما ستقولين ، اطمئني من هذه الناحية ، فليس من مصلحتي في شيء أن أخبره بأني كنت أتجسس عليه ، والآن ألا تعلمين من أمره شيئاً ؟ .

ـ إذا أردت الحقيقة يا سيدتي ! فقد صادف ورأيت سيدي..

وقطعت سعاد كلامها قائلة :

ـ عدت مرة اخرى إلى كلمات المداهنة ، لا تقولي صادف ، أنا أعرف انك كنت تتابعين خطواته وتتجسسين عليه .

ـ نعم وقد رأيته في صحبة فتاة في إحدى المتنزهات ..

وهنا تحفزت سعاد وقالت :

ـ ما شكل هذه الفتاة ؟.

ـ الواقع اني لم أصدق عيني حينما رأيتهما يا سيدتي ! فقد كانت فتاة وقوراً بريئة المظهر محتشمة الملبس ولكن ..

ولكن ماذا ؟ .

ـ عدت فرأيته معها ثانية وكانت تحدثه وهي مستندة إلى جذع شجرة وهو واقف أمامها يستمع .

ـ ألم تسمعي ما كانت تقول ؟.

ـ ومن أين لي أن أسمع وأنا خارج أسوار الحديقة .. وفي مرة اخرى ..

وسكتت سنية ، لكن سعاد استحثتها على الكلام قائلة :

ـ وماذا في مرة اخرى ؟! .

ـ رأيته واقفاً معها على رصيف الشارع وكانت سيارته إلى جواره تنتظر ..

ـ وهل ركبت معه السيارة ؟.

ـ لا أدري وإن كنت لا أشك في ذلك ، فقد خشيت أن أتأخر فيلحظني سيدي .

وأطرقت سعاد تفكر ، ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ شكراً لك يا سنية ! والآن انصرفي واخبريني عن كل ما يجد في الأمر .

وشعرت سعاد بلذة الانتقام ، ونسيت كل شيء سوى فوزها بالتنكيل بإبراهيم ، وظنت أن ساعة الانتقام منه قد دنت ، وما عليها إلا أن تزور إبراهيم بعد رجوعه لتهنئه بالعروس التي اختارها دون باقي الفتيات، وتتلذذ بمرآه وقد جلله العار وحطمته خيانة نقاء، ورأت أن الوقت لم يحن بعد لاسترداد محمود فلتدعه لنقاء مؤقتاً حتى يرجع إبراهيم ، فهي واثقة من جره إليها في أي حين وعليها هي أيضاً أن تلتفت نحو صلاح قبل أن يفلت من يدها نهائياً ، فقد كانت قد أهملته منذ الحفلة الأخيرة لانشغالها بالمهندس الشاب .



الفصل الثاني والعشرون

عكف محمود على مطالعة الكتب التي اشتراها ، وكانت تفتح أمامه أبواباً كثيرة من المعرفة والثقافة الدينية والروحية ، وتنقله إلى عالم أوسع يحلق فيه بروحه سعيداً نشواناً ، ولم يكن ييأس من لقاء ملاكه الهادي مرة اخرى، فهو يقضي جل أوقاته بين المنتزه والحدائق ، وكتابه معه أينما ذهب .. وفعلاً فقد صادفها في أحد الأيام وهي جالسة في ركنها القصي تطالع كعادتها دائماً ، فتقدم نحوها بخطى ثابتة وحيّاها بصوت هادىء ، فعرفت نقاء صوته فرفعت رأسها وردت تحيته باحترام فقال لها :

ـ أتسمح لي سيدتي بالجلوس على مقعد قريب لمحادثتها ؟.

ولم يسع نقاء إلا أن تقول :

ـ لك ذلك .

فجلس محمود وقال :

ـ أنا لا أريد أن أضيع هده الدقائق عبثاً . لقد قرأت جل الكتب التي أرشدتيني إليها .

ـ بارك الله فيك ، كيف انت بعد قرائتها ؟.

ـ أرى نفسي وكأني ولدت من جديد ، فقد تبدلت جميع مفاهيمي عن الحياة .. نعم لقد ولدت من جديد !.

ـ فلا تفكر إذن بعد اليوم في ماضيك ، واحرص على أن تحصر فكرك في مستقبلك وحياتك الجديدة .

ـ أنا أحاول أن انتزع نفسى من ماضيي ، وقد توصلت إلى كثير من ذلك ولكن !..

ـ ولكن ماذا ؟.

ـ ولكن صاحبة هذا الخاتم الذي يطوق اصبعي ، والتي منعتك مرة دون أن تسلميني إلى يد البوليس هي التي تحول بيني وبين نسيان الماضي ..

ـ آه !..

ـ نعم فحاضرها مرآة ماضيي .

ـ ألا يمكن أن تقوم هي ايضاً ؟.

ـ مطلقاً فقد بعـــد بها الطريق ، ولم تتورع عن ارتكاب اي شيء .

ـ حتى .. اقصد حتى ..

ـ دعيني اقول ما تريدين قوله ، نعم حتى الخيانة الزوجية !

ـ آه ! .

ـ إنها كالفراشة تنتقل إلى حيث شاءت ومتى رغبت .

ـ إلى هذا الحد ! ؟ .

ـ نعم وأكثر ..

ـ ولماذا لا تحاول التخلص منها ؟.

وسكت محمود برهة ثم قال :

ـ لأني احبها يا اخية ، وحبي لها هو الذي جعلني امسك عليها طيلة هذه المدة .

ـ انت غلطان يا أخي ، فأنت لا تحب زوجتك هذه ابداً ؟!

ـ وكيف ؟ .

ـ إنك لو كنت تحبها حقاً ، لما أمكنك أن تسمح لها بتلك الأعمال ، ولكن شعورك نحوها ليس شعور حب ، بل انه مجرد نزوة جسدية وشعور بالضعف امام سلطانها عليك ، فأنت تحب دارك مثلاً ، فهل يمكنك أن تدع واحداً غريباً عنك لا يمت لك

بصلة يسكنها وإياك ؟ وأنت تحب ثروتك ولا ريب، فهل ترضى أن يشاركك فيها احد ؟ انت لا تحبها مطلقاً .

ـ ...

ـ فتش في نفسك عن الحب ، لترى أن الشعور الذي يشدك نحو هذه الزوجة هو أبعد ما يكون عنه ، فالحب لا يقوم مع الخيانة ، ولا يدوم في جو الرذيلة ، لأنه شيء مقدس لا يعمر إلا في القلوب الطاهرة والأرواح البريئة ، انك لو طالعت نفسك لرأيت كيف انك تمقتها بدلاً من أن تحبها وتتمنى الفرار منها ، وتؤثر البعد عنهـا للخلاص من سيطرتها على جسدك وتسخيرها لنزواتك .

ـ أنا اخشاها دائماً ..

ـ إن هذا أحسن دليل يدلك على انك غلطان في تقدير عواطفك نحوها ، فالمحب لا يخشى حبيبه ولا يخافه ، ولكن الخاضع يخشى من أخضعـــه ، والضعيف يخشى القوي ، كنت ضعيفاً أمامها قبل الآن ، أما الآن فإنك أنت القوي وهي الضعيفة ، فإن قوة الشرف والإيمان هي أسمى قوة في الإنسان ، وأنت الآن مؤمن وشريف ، فحاول أن تتخلص من أحابيلها ، راجع نفسك مرة اخرى لترى صدق ما أقول .

ـ أنا على يقين من اني لن أتمكن من أن أنزع الماضي ما دمت خاضعاً لسلطان هذه المرأة .

ـ فتحرر من سلطانها إذن .

ـ سوف أحاول ذلك مهما استطعت .

ـ حاول اولاً أن تصلحها ، فإذا فشلت فلا تدعها تلوث حياتك الحرة الشريفة ..

ـ إن إصلاحها متعذر ، فهي قد استحالت إلى مجموعة من آثام وخطايا ..

ـ إن المحاولة لن تخسرك شيئاً على كل حال ، فإذا عجزت حدد موقفك منها .

فسكت محمود ، ثم قال بصوت خافت :

ـ هل لي أن اوجه إليك سؤالاً واحداً ؟

ـ تفضل .. إسأل ..

ـ لقد رأيتك مرة في المطار بصحبة رجل كهل ؟ .

ـ نعم ، انت تقصد يوم سفر إبراهيم ، لقد كان ابي معي هناك وهو رجل كهل كما رأيت .

ـ أبوك ؟ !

ـ نعم ، أبي .

ـ ومن عساه إبراهيم هذا الذي كان له سعادة مشايعتك ؟ !

فعلت حمرة الخفر والحياء وجه نقاء وهي تقول :

ـ انه زوجي ..

ولم يظهر على محاود أي خيبة او ارتباك، فهو لم يكن يشعر نحو نقاء غير شعور الأخوة والإعجاب ، ولكنه ود لو عرف زوجها ، ومن يكون فتساءل :

ـ هلا زدتيني إيضاحاً بشخصية السيد إبراهيم ؟ .

ـ وما الذي يعنيك من ذلك يا أخي ؟ !

ـ أرجو أن لا تحملي سؤالي محمل الفضول ..

ـ أنا أعلم أن غايتك من السؤال نبيلة ، والاستطلاع إذا كان بداع النبل لا يعد فضولاً أو تطفلاً .

ولم يشأ محمود أن يتابع هـذا الموضوع لئلا يغضب محدثته ، أو يسيء إليها . فسكت برهة ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

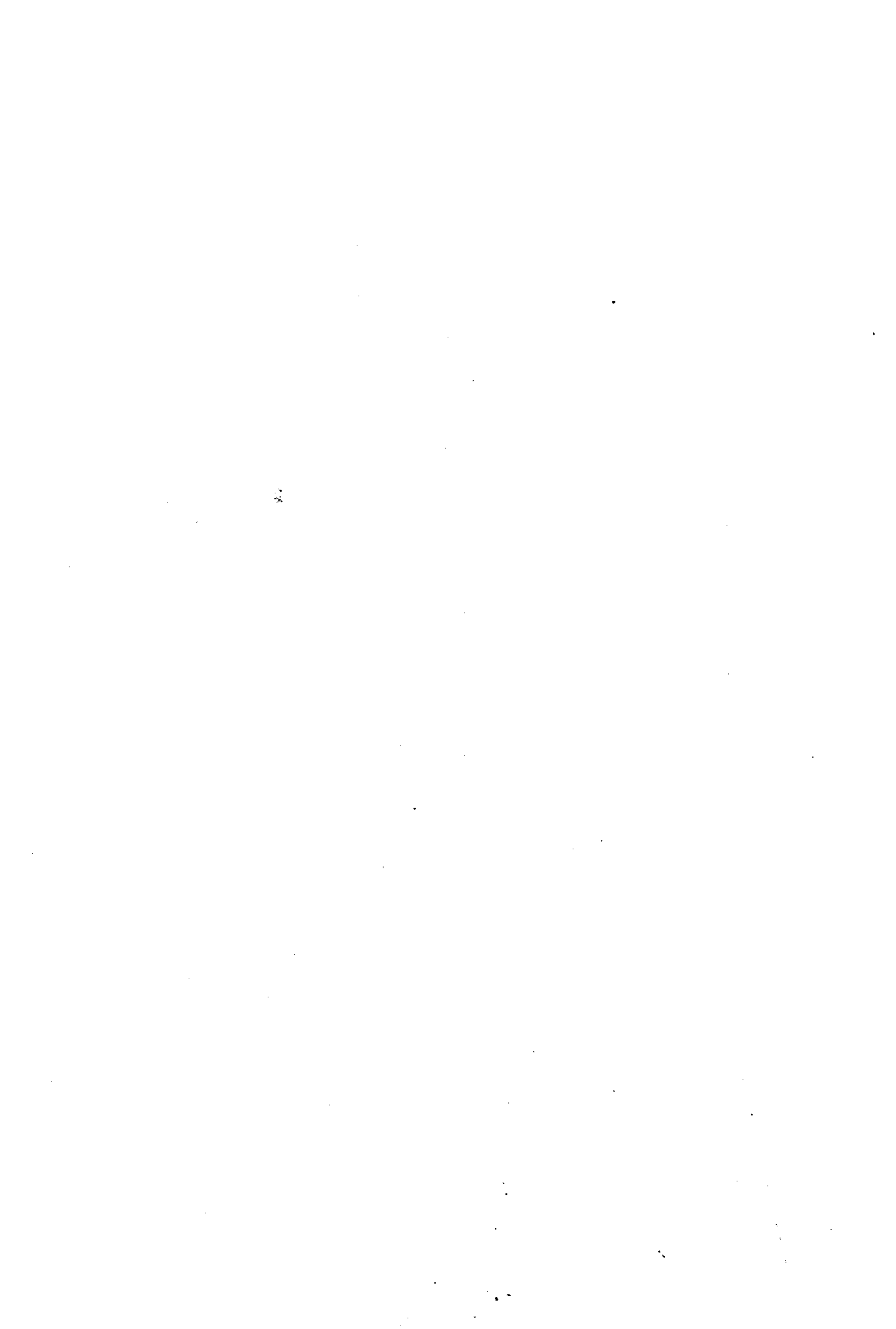
ـ ليتني أتمكن أن أدفن الماضي في سجل النسيان ، ولكني لن أستطيع ذلك ما دامت تلك موجودة ..

ـ أنت الآن رجل مستقيم ، لك أفكارك الواضحة وشخصيتك الثابتة ، فتصرف بما يمليه عليك ضميرك ، وبما تدعو إليه روحك .

وعند ذلك نهضت نقاء وقالت :

ـ أنت لم تعد تحتاج إلى أحد، فإن عندك من الكتب رصيداً يغنيك عن كل شيء ، ولكن فاتني أن أقول لك : إذا أردت أن تطالع قصة ، فاقرأ قصة « البؤساء » لفكتور هوجو ، فهي مدرسة إنسانية رائعة .

ولم يسع محمود إلا أن ينهض احتراماً لها ، فودعته وانصرفت ، وفي هذه المرة لم تحدثه نفسه أن يتبعها أو يتعقبها ، فقد كان يشعر أن ذلك بعيد كل البعد عن الأخلاق الفاضلة . .



الفصل الثالث والعشرون

رجع محمود إلى البَيت وهو يحس بالصراع قائماً بين عاملين في روحه ، فقد كان يشعر أن عليـــه أن يتحرر من سعاد وأنه لن ينجح في حياته الجديدة ، إلا إذا تخلص من سلطانها عليه ، وكان يقف فكره عند كل مرة ، يحدث فيها نفسه عن حياته الجديدة ، ويتساءل في سره : هل حقاً انه بدأ حياة جديدة لا زيف فيها ولا خداع . . لا فسق فيهـا ولا مجون ؟ هل حقاً أنه أخذ يستيقظ من سكرته الماضية ؟ وكيف ؟ . وما هو السبب في هـذا ؟ . . ولم يكن في كل مرة يحصل من نفسه إلا على جواب واحد : كنت تكفر بوجود الخير ، ولكنه وجد أمامك فآمنت به . . كنت تنكر أن للقيم حقيقة فتجسدت أمامك . . فلم يسعك إلا أن تقر بها .. أنت خضت تجربة كانت فاشلة ، لكنها دلتك على طريق النجاح .

وكان أشد ما يعذبه هو موقفه من سعاد ، وكان يود أن يعرف نوعية الحبل الذي يشده إليها ، وهل أن الحب، هو الذي يخضعه لها أو شيء آخر فيتردد.. أهو يحبها حقاً ؟ أيحق له أن يستبقيها بذريعة الحب ؟ أيسمي شعوره نحوها حباً أم مجرد رغبة ورهبة؟ أيجوز له أن يدعها تنبش ماضيه وهو في طريقه لدفنه في طيات التوبة؟ أيصح له أن يعيش مع امرأة لا تتقيد بأي قيم إنسانية ؟. إنه يقر بأنها كانت ضرورة من ضرورات حياته السابقة . أما الآن فقد أصبحت ضرراً على حيـاته اللاحقة .. نعم ، انه كان يهواها فيما مضى ، ولكن الآن هل لا يزال يهواها أو هل يحبها حقاً ؟ ! .

الفصل الرابع والعشرون

مضت الأيام على محمود وهو يعاني صراعاً عنيفاً بين قوى الشر والخير ، وما أكثر ما أرق لياليه يتقلب بين مختلف الأفكار . . وكانت سعاد تتجنبه طيلة هذه المدة ، ظناً منهـــا أنه عاشق مفتون مندفع وراء هواه . . وفي أحد الأيام خرجت سعاد من البيت ، فرأت محمود يستعد لركوب السيارة ، وقد حمل بين يديه حقيبة صغيرة ، فتوقفت وسألته متخابثة :

ـ إلى أين أنت مسافر يا محمود ؟!

ـ أنا ذاهب لزيارة جدتي العجوز فقد علمت أنها مريضة . .

ـ ومتى أصبحت طبيباً تداوي العجائز ؟ .

ـ أنا لست بطبيب، ولكن عليّ أن أذهب لآتي لها بطبيب، فأنا كل من تبقى لها في الوجود .

ـ ومنذ متى أصبحت تحس بهذه العواطف الإنسانية ؟!

ـ منذ أبصرت عيني نور الحياة .

وظنت سعاد انه يهزأ ، فأردفت تقول :

ـ وكم سوف يطول بقاؤك هناك ؟ .

ـ إلى الوقت الذي أطمأن فيه على صحتها .

ـ حتى ولو أسبوع ؟.

ـ أنا سوف أبقى أُسبوعاً على كل حال ، فلم أزر جـــدتي المسكينة هذه منذ سنوات ، مع أنها بعثت تستدعيني عشرات المرات ، ولكن إذا أحوج الأمر فسوف أظل أكثر من أسبوع .

ـ إذهب مع السلامة يا محمود ! .

واستقل محمود سيارته ، ومضى ينهب بها الشارع وكأنه كان يريد الابتعاد عن سعاد بأسرع وقت ، وتابعته سعاد بنظرها ، وردت في نفسها قائلة : أنت لن تذهب إلى جدتك يا محمود !.. فهنيئاً لنقاء بأسبوعها الحافل .. وليكن هذا الأسبوع هو أسبوع الوداع ، فقد قربت عودة إبراهيم ..

أما محمود فقد كان صادقاً فيما قال ، وكانت جدته مريضة حقاً ولكنها لم تشأ أن تستدعيه ، فقـد يئست من استجابته لها لكثرة ما استدعته فلم يجب ، وكتبت إليه فلم يرد عليها بكلمة واحدة ، فأقامت على علتها ووحدتها تنتظر الأجل المحتوم .

ولم يتوقف محمود في الطريق ، فقد كان يخشى أن يتأخر

ساعة فيصل بعد فوات الأوان ، فهو يحس بعاطفة قوية تجيش بصدره نحو هذه الجدة المسكينة، وهو يتصورها على سرير الموت، تقلبها أيدي الأجانب والأغراب، وود لو يلقاها حية ليستغفرها عن عقوقه ويذرف بين يديها دموع التوبة والنـــدم . . ووصل أخيراً إلى بيت جدته وطرق الباب ففتحه له خادم شيخ استغرب قدومه ولم يتعرف عليه ، فسأله محمود في لهفة :

ـ كيف حال السيدة يا حاج ؟!

فرد الخادم بصوت يشوبه الاستغراب لهذه اللهفة قائلاً :

ـ لا تزال كما هي يا أستاذ !.

ـ تقصد أنها لا تزال مريضة ؟ .

ـ نعم فهي ما برحت تصارع الموت ولكن ..

ولم يمهله محمود ليتم جملته بل اندفع نحو الداخل ، وهمّ الخادم أن يمنعه من الدخول وهو يقول :

ـ إن الدخول ممنوع يا سيدي ! فحالها لا يسمح بذلك .

ـ ولكني ابنها يا شيخ !.

ـ إبنهـــا ! ؟ .

ـ نعم أنا حفيدها الوحيد .

ـ آه .. أنت السيد محمود إذن ؟.

ـ نعم .

ـ لقد كانت تذكرك كثيراً يا سيدي ! .. وطالما سكبت لأجلك الدموع ..

ودخل محمود على جدته فوجدها في غيبوبة وقد وقفت عند رأسها خادمتها العجوز التي لازمتها منذ صباها الأول .. ولهذا فقد عرفت محمود في الوهلة الأولى، فقالت بصوت تخنقه العبرات:

ـ هل أتيت أخيراً يا سيد محمود !.. لقد كانت تحيي بذكرك دائماً ولكنها الآن لا تتمكن أن تحس بوجودك .

وتساقط العرق بارداً على وجه محمود وردد في جزع قائلاً :

ـ لعلها .. لعلها ..

ـ لا يا سيدي ! إنها لم تنته بعد ولكن نهايتها ليست ببعيدة.

ـ وكيف ؟ ألا يوجد طبيب هنا ؟!

ـ لقد رآها الطبيب منذ ساعة ، ولكنه قال : إنها لن تحتاج إليه بعد الآن .

انحنى محمود على الجسد المسجى، ورفع اليد المعروفة إلى فمه وطبع عليها قبلة طويلة ثم رفع رأسه وقد تبلل وجهه بالدموع ، وظل واقفاً أمامها لا يريم ، وفجأة صدرت عن صدر المريضة العجوز آهة أتبعتها بتململ قليل من رأسها ، فانحنى عليها مرة أخرى وناداها بصوت خافت حنون : جدتي .. جدتي العزيزة ! أنا محمود . جهد جبار فتحت العجوز عينيها وابتهل محمود

إلى ربه في سره قائلا : ليتها تعرفني يا رب ! وعرفته المسكينة، فقد لاحت على وجهها المغضن الشاحب شبح ابتسامة . . فعاد محمود يقول :

ـ أنا محمود ، جئت إليك تائباً نادماً مستغفراً عما بدر مني، فهل تغفرين لإبنك العاق ؟.

ورفعت المرأة العجوز عينها نحو السماء كأنها تريد أن تدعو له بالغفران ، فانحنى مرة أخرى وقبل يدها بخشوع وشعر بأناملها باردة متشنجة ، فلم يشأ أن يترك تلك اليد الكريمة التي طالما هدهدته وداعبته فأبقى عليها بين يديه، واختلجت الأنامل في قبضته اختلاجة صغيرة ، وصدرت عن الجسد المسجي أنة خافتة ، فنظر نحوها فزعاً ، وحاول أن يناديها مرة أخرى ، ولكن الخادمة العجوز منعته من ذلك ، وقالت وهي تذرف العبرات :

ـ دعها فقد أسلمت روحها إلى باريها راضية مرضية .



الفصل الخامس والعشرون

أنهى محمود مراسيم دفن جدته ، وفي ساعة متأخرة من اليوم الثاني وصل إلى داره ففتح الباب بالمفتاح الذي كان يحمله معه ، وتوجه إلى غرفته ، وكان السكون يسود أرجاء الدار ، وقد انصرف الخدم إلى بيوتهم كعادتهم في كل يوم ، فلم يكن يستقيم في البيت أحد من الخدم عدا سلية ، وكان بصيص من النور يلوح من نوافذ غرفتها فعلم أنها لا تزال يقظي ، وحانت منه التفاتة نحو غرفـــة سعاد فرآها غارقة في ظلام دامس ، فعجب لذلك وهو يعلم أنها لا تنام في الظلمة ، وفكر أنها لم تعد بعد ، ونظر إلى الساعة فرأى أنها تقارب الثانية صباحاً ..

وكانت حوادث اليومين الماضيين قد أثرت على أعصابه فلم يتمكن أن ينام ، وهو يشعر بالندم.. كيف أعمت الشهوات عينيه ؟ وكيف سمح لنفسه أن يجري وراء هواه ؟ وكيف صيرته المادة عبـــداً

لا يخضع إلا لها ؟ ولا يعيش إلا لأجلها ، حتى جدته العجوز لم يستجب لنداءاتها أو يرد على رسائلها، ليت حياتها استمرت مدة أطول، إذن لعرف كيف يضمها إليه، وكيف يمسح بعواطفه على آلامها وأمراضها، لكنها ذهبت ولن تعود ، وأرق محمود مع هذه الأفكار . . وعز عليه النوم ، ومرت ساعة وساعتان ولم يطبق له جفن ، تذكر سعاد وخطر له أن يعرف إن كانت قد عادت أم لا ، فنهض وتطلع نحو نافذتها فرآها كما كانت غارقة في الظلام ، فهاله أنها لم ترجع بعد ، واتجه ببصره نحو غرفة سنية فوجد أن النور الضعيف لا يزال يلوح منها ، فهمّ أن يستدعيها ليسألها عن سعاد ، ولكنه خشي إن تحمل سنية ذلك منه على محمل غير شريف ، فتردد مدة ثم أقلع عن هذه الفكرة وحاول أن ينام، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وقد أخذت تنكشف أمام ضميره أعمال سعاد وأفعالها على أبشع صورة ، وعجب لنفسه كيف ظن أن في وسعه إصلاحها بعد أن بلغت من انحرافها هذا المدى البعيد .. وعند بزوغ أول علائم الفجور ذهب بنفسه إلى غرفة سعاد ليتأكد من خلوها فألفاها مغلقة يسودها الظلام ، وخطر له أن يطرق الباب فلعلها آثرت أن تنام ليلتها في الظلمة ، ولكن طرقاته لم تكن لتنتج شيئاً والغرفة خالية، فرجع إلى غرفته وهو يتميز غيظاً وحنقاً وألقى بنفسه على الكرسي وهو يتمتم : لقد حسبت أني لن أرجع قبل أسبوع . . ولكن أيمكن أن يحدث هذا ؟ ! أوصلت بها الخيانة إلى هـذا المدى البعيد ! نعم إنها

هكذا كانت دائماً ، ولكني أنا الذي كنت سادراً في سكرتي المقيتة فاستغفلتني حتى أمنت جانبي واستبعدتني حتى لم تعد تخش مني .

ثم صمم على أن يستدعي سنية . . وما عليه إذا خامر الشك قلبها إلى دقائق.. وقرع الجرس، فقد كان في غرفته جرس خاص يتصل بغرفتها مباشرة، ولم تمض لحظات حتى سمع نقراً خفيفاً على الباب فقال: ادخلي يا سنية !.. فدخلت سنية وهي تتعثر بأذيالها من الارتباك ووقفت تنتظر فسألها محمود في هدوء قائلاً :

ـ أين سعاد يا سنية ؟! .

فسكتت سنية ولم تجب ، بل ولم ترفع نحوه رأسها أيضاً ، فكرر السؤال في شدة :

ـ أجيبي يا سنية ! أين ذهبت سعاد ؟ ولماذا لم تعد طيلة هذه الليلة ؟ .

ورأت سنية أن الفرصة قد واتتها للانتقام من سعاد ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، فهي لم تكن تخش سعاد إلا من ناحية واحدة، وهي إن تتسبب في طردها وإقصائها عن محمود، وأما الآن فقد خسرت محمود على كل حال ، فما الذي يدعوها إلى التستر على سعاد ، ولهذا فقد صممت على أن تقول كل شيء .. فقالت :

ـ لقد تركت سيدتي البيت منذ الساعة السادسة بعد الظهر من مساء أمس ..

فارتعد صوت محمود وهو يسأل :

ـ ألا تعلمين أين ذهبت ؟ ألم تقل لك شيئاً عن ذلك !.

ـ إنها لم تخبرني بشيء .

ـ إصدقيني يا سنية ! ألا تعلمين شيئاً عن المكان الذي قصدت إليه ؟ .

ـ إنها ذهبت إلى أحد المسارح .

ـ أحد المسارح ! وفي الساعة السادسة .

ـ لقد قضت ساعتين في حدائق المسرح قبل بداية العرض .

ـ وهل كانت وحدها يا سنية ؟ .

ـ لا ...

ـ إذن فمن كان معها هناك ؟ .

ـ كانت بصحبة صلاح ...

ـ صلاح !!.

ـ نعم صلاح .

ـ ومن أين علمت ذلك ؟ .

ـ لقد تعقبتها يا سيدي ! ولم أعد إلى البيت حتى عرفت كل شيء ..

ـ أنت تعقبتيها يا سنية ! .

ـ نعم فأنا موتورة ، فقد حطمت حياتي وسحقت سعادتي.

ـ وكيف يا سنية ؟ !.

ـ أنا على ثقة من أنها هي التي تسببت بحرماني من ...

ـ أما هذا فلا .. أنا أفهم ما تريدين أن تقولي، ولكن إعلمي يا سنية ! أن سعاد لم يكن لها أي دخل في ذلك ... والآن أخبريني أين قضت سعاد ليلتها ؟ .

ـ عند صلاح .. نعم ، وقد رأيتهما يدخلان داره وهما مخموران .

ـ أحقاً ما تقولين أم أن حقدك عليها يدفعك إلى ذلك ؟.

ـ أقسم لك بربي يا سيدي ! على صحة ما أقوله . . وإذا أردت أن تتأكد فاذهب إلى بيت صلاح لتجدها هناك .

وأحس محمود أن الدماء تغلي في عروقه وأن قبضة الغيرة تضغط على عنقه بيد من حديد، فسكت برهة ثم رأى أن عليه أن يقول لهذه المسكينة الواقفة أمامه شيئاً وهو يعلم أنه أساء إليها من قبل فقال :

ـ سنية ! أنت امرأة شابة على جانب غير قليل من الذكاء والفطنة ، فهلا شققت لنفسك طريقاً في الحياة وأنا كفيل بتمهيده لك على أحسن وجه ...

ـ أنا لا أفهم ما تقصد يا سيدي ! وأي حياة هـذه التي تحدثني عنها ؟.

ـ أقصد مستقبلك يا سنية ! .

ـ مستقبلي ؟! ومن أين لي مستقبل واضح ؟...

ـ أنا على استعداد لأن أعينك بأي شيء ...

ـ ماذا مثلاً ؟ .

ـ عمل تجاري أو أي شيء آخر من هذا القبيل .

ـ عمل تجاري .. عمل تجاري !.

ـ نعم يا سنية ! أنا مسؤول عن كفالته لك .. فكري فيما قلته الآن ومتى ما توصلت إلى قرار فأنا حاضر أن أُساعدك كأخ .

ـ ماذا تقول يا سيدي ؟ أنا أكون صاحبة عمل تجاري ؟!.

ـ نعم أنت تكونين المالكة لرأس مال تتصرفين فيه كما تشائين ، لكي أتمكن أن أعيش حياتي هانئاً سعيداً . . والآن انصرفي يا سنية ! واعلمي أني قد خلقت من جديد ...

انصرفت سنية وهي لا تكاد تصدق ما سمعته !. . وظل محمود ينتظر رجوع سعاد ، وقد صمم على أن يحدد موقفه منها .. وفكر لو ذهبت إلى بيت صلاح ليضع النقاط على الحروف معها هناك ، ولكن يحول دون عودتها إلى البيت . . ولكنه تذكر كلمات نقاء وتذكر أنها أوصته أن يحاول إصلاحها أولاً ، فإذا يئس فإن عليه أن يبعدها عن حياته بأي ثمن .

وفي حوالي الساعة الثامنه سمع صوت بوق سيارة سعاد ...
فانتظر حتى استوثق من دخولها إلى غرفتها ثم توجه إليها ، وكان
باب غرفتها لا يزال مفتوحاً ولكنه قرع الباب فجاءه صوت
سعاد :

ـ من الطارق .. سنية ؟ أُدخلي .

فرد محمود قائلاً :

ـ لا .. أنا محمود يا سعاد ! .

ثم دلف إلى الغرفة قائلاً :

ـ أظنك لم تتوقعين رؤيتي في هذا الصباح . .

وصعقت سعاد لمرآه وتمتمت قائلة :

ـ محمود .. محمود .

ـ نعم .. أنا محمود زوجك المخدوع ! .

وكانت سعاد واقفة فألقت بنفسها على الكرسي وحاولت أن
تستعيد رباطة جأشها، وأن تواجه الواقع مهما كان، فقالت بصوت
حاولت أن يبدو طبيعياً :

ـ أراك عدت سريعاً يا محمود ! ألم تكن رحلتك موفقة ؟.

فتقدم نحوها ووقف لمواجهتها وقال وهو يتصنع الهدوء ؟ .

ـ نعم لقد عدت لأراك تقضين ليلك خارج بيتك . .
ولا تعودين إلا عند الصباح . . عدت لأراك وأنت تتمرغين

بالرذيلة وتريقين ما تبقى لك من العـــزة والكرامة على مذبح شهواتك ..

ـ لست أدري ما الذي دهاك يا محمود ؟ هل أنت سكران أم أن الفشل قد حدى بك إلى هذه الثورة ، فجعلك تتمشدق بالعزة والكرامة ؟.

ـ أنا الآن صاح كما لم أصح من قبل، ولهذا فقد جئت لأحاول معك محاولة أخيرة ..

ـ إن محاولاتك معلومة لدي .. فوفر لنفسك نصائحك ..

ـ بودي لو أقلمت عن هذه المحاولة ، ولكن داعي الواجب يدعوني إلى ذلك .. أين كنت يا سعاد ؟! أين قضيت ليلتك هذه بعيدة عن الدار ؟ متى افترقت عن صلاح ؟ وهل افترقت عنه ؟!

ـ وما يعنيك أنت من ذلك .. أنا حرة أفعل ما أشاء !.

ـ إن للحرية حدوداً قد أسأت لها كثيراً يا سعاد !

ـ مهما بلغت من الحرية فلن أصل إلى بعض حريتك يا محمود .. ونحن متفقان مبدئياً على المساواة بين المرأة والرجل !

ـ الحرية لا تعني الخيانة ، ولا تعني الانحراف ..

ـ الخائن لا يخان يا محمود !

ـ أنا لا أريد أن أدخل معك في نقاش عن الخيانة الزوجية ولكني أريد إيضاحاً فقط .

ـ عن أي شيء ؟ـ!

ـ عن المكان الذي قضيت فيه ليلتك هذه ..

ـ أخبرني أنت أولاً عن ليلتك الماضية .. والتي قبلهـــا .. حدثني أنت أولاً عن مغامراتك ومغامرتك الأخيرة على الخصوص وتفاصيلها لكي يكون لك بعض الحق في السؤال ..

ـ أنا لن أفوه لك بحرف واحد يا سعاد ، وعليك أنت أن تخبريني بكل شيء ، فقد سئمت هذا الوضع المشين ، ولم أعد أطيق هذه الضعة التي تشعريني بها في الحياة .. أنا لن ..

فقطعت سعاد كلامه ، وهي تظن أنها سوف ترميه بنفس سلاحه ، وأنها سوف تتمكن منـــه كعادتها في المرات السابقة فقالت :

ـ وما السبب في انتهاء مهمتك بهذه السرعة ! هل تخاصمتما أم هل رجع الغائب من السفر ؟!

ـ أنا لا أفهم ما تقولين يا سعاد، لقد عدت وكفى، نعم عدت أمس ليلاً .

ـ ثم ماذا ؟

ـ لا شيء مطلقاً سوى اني لم أعد أطيق منك هذا السلوك..

ـ أراك ثائراً (اليوم) يا محمود ! .. أكان فشلك مع نقاء هو الذي دعاك إلى هذه الثورة ؟ . . أنت تعلم منذ اليوم الأول أني حرة ، نعم أنا حرة .

ـ أنا لا أفهم ما تقولين وماذا تقصدين . . أي نقاء هذه التي تتحدثين عنهـــا وأي فشل ؟ ! أنا ما عدت أفشل في حياتي ما دمت .. سوف أتخلص منك ومن عارك يا سعاد .

ـ أهكذا تنسى اسمها بهذه السرعة يا محمود ..! أم تتناساه ؟

ـ أنا لا أعرف أي اسم لكي أنساه ، أنا لا أذكر الآن سوى إني في طريقي للتخلص منك إلى الأبد . . إلا إذا حاولت أن تبرري تصرفك وتتوبي وتقلعي عن تصرفاتك المشينة .

ـ ماذا أبرر .. وعن أي تصرفات ..

ـ عن خياناتك ونزواتك ..

ـ لا شك أنك مجنون . . أتظن أن امرأة مثلي في شبابي وجمالي تقبع في عقر دارك وتوقف حياتها عليك ؟.. أنا حرة يا محمود !.. ولي الحق الكامل في الاستفادة من جمالي وشبابي، أنا لا أسحق حياتي لحساب زوج مثلك أو أي زوج آخر ، فهل يكفيك هذا ؟

ـ طبعاً يكفيني وزيادة، لقد كنت أظن أنك سوف تعتذرين أما الآن ..

ـ فماذا عساك أن تفعل بعد أن عرفت أني لا أعتذر ولا أبدي أي تبرير ، أنا هكذا كنت وهكذا سأكون !.

ـ أنت تعترفين إذن !

ـ وهل أنت قاض حتى أعترف بين يديك .. كان عليك أن تعترف أنت أولاً ..

ـ أنا زوجك ولي الحق في تحديد موقفي منك بعد الآن إلا إذا . .

ـ مرة أخرى تقول : إلا إذا ! .. لا أعلم ، إني لن أعتذر مطلقاً فنحن متفقان على أن لكل من المرأة والرجل الحرية الكاملة ، فكما ذهبت أنت إلى نقاء .. ذهبت أنا أيضاً ..

ـ إلى صلاح طبعاً ! .

ـ نعم ، فهل يرضيك هذا ، وهل يكفيني شر ثورتك !..

ـ أتعلمين ما تقولين يا سعاد ! . . هل انتبهت إلى كلماتك الناطقة عن الخطيئة والمجللة بالعار ؟.

ـ أراك أصبحت تردد الكلمات العتيقة . . هل أصابتك العدوى من نقاء ؟.

ـ نقاء ! ومن تكون نقاء هذه ؟ أنا لا أعرف واحدة اسمها نقاء ، ولا أردد كلمات عتيقة ، وأنا أحاول جاهداً أن أسيطر

على أعصابي معك ، لكي لا أبقي ناحية مغفولة ، أو أغلق باباً من أبواب الأمل في الإصلاح ..

ـ لا أدري هل أنت غبي أم تتغابى ! أم تظن بي الغباء ؟ ! أتنكر معرفة نقاء ؟! .

ـ أنا لم أسمع بهذا الإسم من قبل ! .

ـ هه .. نقاء فاتنتك الجديدة زوجة إبراهيم .

ـ وهنا أفلت رمام غضب محمود فصرخ بها قائلاً :

ـ الويل لك يا سعاد ! أتجرأين على النيل من هذا الملاك الطاهر ..

وقطعت سعاد كلامه قائلة :

ـ أرأيت كيف أنك تعرفها يا محمود ؟! .

ـ أنا لم أكن أعرف اسمها قبل الآن ، ولكنني عرفتها لذُكر إبراهيم ، وحتى هذا فهي لم تكن لتخبرني به لولا داعي العفـة والفضيلة ..

ـ العفة !!.

ـ نعم ، إنها ملاك طاهر في صورة إنسان ، انها مجموعة مثل خيرة ، وأنموذج كامل للأخلاق الفاضلة .

ـ ماذا تعني يا محمود ؟! .

ـ أنت لا تستطيعين أن تتوصلي إلى ما أعنيه ، فمن أين لفكرك الطائش أن يسبر ماهيتها ويدرك حقيقتها ..

وارتبكت سعاد ولم تفهم معنى لكلمات محمود، فرددت قائلة:

ـ أنا لا أفهم ما تعنيه يا محمود ، أيمكن لنقاء أن تكون عفيفة فاضلة وهي خليلتك ؟ !

ـ أعوذ بالله ، أنا لم أكن أعرف عنها حتى مجرد اسمها ، ولا تعرف هي عني حتى إسمي ، ولا يمكن لقلب طاهر على شاكلة قلبها أن يعشق رجلاً مثلي ، إنها وهبته لمن يستحقه ، ولا شك ..

وارتعش صوت سعاد وهي تقول :

ـ إذن أنت لم ..

ـ لا .. أبداً ، أنا أعرف ما تريدين أن تقولي .. لقد دفعت بي إلى الغواية ، ولكنني اهتديت .. وأرسلت بي نحو الظلام ولكني أبصرت قدامي نوراً فمشيت . وبعثت بي إلى الحضيض، فسموت إلى الآفاق . أنت أردت أن تمنعني في تضليلي ، فشاء الله أن يكون في إضلالك هداية لي . وإنقاذاً لروحي من بحر الخطيئات . أنا لم أعد ذلك الرجل الضائع في خضم الخطايا ، فقد تفتحت عيني لأول مرة على نور الحياة ، وذقت طعم سعادتها منذ أيام .

ـ إذن .. إذن .. فأنت تعشق نقاء ولم تحاول إغراءها !

ـ أنا لم أعشقها ، ولن أعشقها أبداً ، ولا أشعر نحوها بأى شعور شهوي ، ولكني أحترمها كملاك هادي ، وكوكب منير فهى بالنسبة لي معنى روحاني يفوق العشق ، ويسمو على الحب ، ولا يدانيه شيء .

وخرجت الحروف متقطعة من فم سعاد وهي تقول :

ـ وهي ؟

ـ مسكينة أنت يا سعاد ، لعلك تودين لو تعرفين الحقيقة ، ولا مانع عندي أن أخبرك بها الآن ، وبعد أن حزمت أمري معك يا سعاد : أنت أغريتيني بنقاء ولم أعرف لذلك سبباً حتى الآن ودفعتيني إليها ، فاندفعت إلى حيث تريدين وحاولت أن ألقي حولها شباكي ولكني فشلت ، وبدلاً من أن تسلمني إلى أيدي الشرطة بدأت في هـدايتي وارشادي إلى طريق الصلاح وقد نجحت كما ترين ، كادت أن تسلمني إلى أيدي الشرطة لولا عطفها عليك وحرصها على أن تجنبك الفضيحة ، قالت لي مرة : لولا هذه المرأة التي تحمل خاتمها حول إصبعك لسلمتك للشرطة :

وصعقت سعاد وسألت في فزع :

ـ وهل تعرفني هي ؟ !

ـ لا ، ولكنها تعرف أني رجل متزوج ، ولو كانت تعرفك لعلمت أن ذلك لن يزيدك فضيحة وعاراً جديداً .

فتمتمت سعاد قائلة :

ـ أو لم تعرف من تكون أنت ؟

ـ أبداً فما حاولت أن تتعرف عليّ ، فهي لم يكن ليغيرها أمري من قريب أو بعيد عن موقفها ولا تزال تجهل حتى إسمي مع انها تعلم كونها هي التي بعثتني بعثاً جديداً في الحياة وهي التي فتحت أمامي أبواب المستقبل الشريف ، نعم انها لا تعرف عني حتى إسمي .

فخرج صوت سعاد على شكل أنات وهي تقول :

ـ إذن فلم تتمكن من إغرائها ؟

ـ وهل يمكن لمثلي أن يغرر بمثلها ! وهل يمكن لتفاهة أفكاري أن تتلاعب بأفكارها السامية . . انها في حصن حصين من مفاهيمها ومثلها وثبات عقيدتها .

ـ آه ، أنت تتكلم عن المثل والمفاهيم !

ـ نعم ، بعد أن عرفت أن لا حياة بلا مثل ، ولا سعادة بدون مفاهيم صالحة . . أنا لم أكن أصدق قبل معرفتي لها أن

للخير وجوداً على هذه الأرض أو أن المثالية الحقيقية توجد في البشر، ولكنها قلبت مفاهيمي رأساً على عقب، وأحدثت في نفسي انقلاباً لم أخرج منه إلا وقد انتصر عنصر الخير فيّ على عنصر الشر، جعلتني أؤمن أن الدنيا مليئة بالناس الطيبين بعد أن كنت أجهل حتى وجود واحد منهم، أما الآن فأنا رجل جديد .. ولهذا فقد صممت على أن أحزم أمري معك يا سعاد! فقد تنبهت أخيراً إلى الخطأ الذي كنت أعيش فيه. فأنا لم أحبك يا سعاد! بل ولن أحبك في يوم من الأيام مطلقاً، وإنما الشعور الحيواني هو الذي أخضعني لك فيما مضى، وقد تخلصت من ذلك الشعور البغيض، فأنت الآن لا تعنين عندي شيئاً. سوف أدفع لك صداقك كاملاً فلعله يكفل لك حياتك لمدة وجيزة تقعين بعدها على صيد جديد، وأنا إذ أتخذ هذا القرار أستشعر الراحة والرضاء، فقد حاولت إلى آخر لحظة أن أنتشلك من حضيضك أو أرفعك من وهدتك هذه لكنك أبيت ذلك وركبت غرورك واندفعت وراء شيطانك، فاذهبي إلى حيث يقودك فكرك الضال.

وكانت سعاد تستمع إلى محمود وهي تستشعر بقلبها يتحطم تحت وطأة كلماته الرصينة، فقد تجسم لها في لحظة شقاؤها وفشلها في الحياة، ورأت كيدها وهو يرد إلى نحوها وسلاحها

يعود فيدمي فؤادها ويهدم ما بنتـه من آمال على الثروة التي أخذت تتلاشى من بين يديها وتتركها ليد العدم والحرمان ، إنها لم تكن تحب محمود ولم تكن تحزن لفراقة أبداً ، ولكنها ما كانت تطيق حياة الفاقة وهي تعلم أن شخصيتها في المجتمع مرهونة بالثروة والمـال الذي يخولها ولوج المجتمع الذي تعيشه ، وهكذا رأت نفسهـا في لحظة وهي خلو من كل شيء ..

الفصل السادس والعشرون

كانت الأشهر الثلاثة تكاد تنقضي وتنتهي بمضيها سفرة إبراهيم وقد أصبحت رسائله تصل مرتين في الأسبوع بدل المرة الواحدة ، ونقاء تعيش بأمل اللقاء القريب وعلى أحلام المستقبل السعيد .. وأخيراً تعين يوم وصوله ، ولم يكن قد بقي عليه سوى يومين . وخرجت نقاء إلى السوق لتشتري بعض حوائجها ، ولما أتممت مهمتها وقفت تنتظر سيارة « الأمانة » وفجأة وقفت أمامها سيارة نزل منها محمود ، وابتدرها بتحية مؤدبة رصينة ، فلم تفزع نقاء في هذه المرة ولم تتقهقر خطوات كما فعلت في المرة الماضية ، فقد اطمأنت إلى غايات هذا الرجل وواقعه النبيل ، ولهذا فقد ردت تحيته بما يليق .. وشجع محمود حماسها في الجواب وسره أن يكون قد توصل أخيراً إلى إشاعة الثقة في نفس نقاء وقال :

ـ منذ مدة وأنا أفتش عنك يا أُختي ، فأنا في حاجـــة إلى مزيد من الإرشاد ..

ـ ألم تكمل قراءة الكتب ؟

ـ قرأتها جميعاً ، وعدت فاشتريت كتباً جديدة ..

ـ وهل اشتريت « البؤساء » لفيكتور هوجو ؟

ـ نعم ، فإن اقتناء الكتب أصبح هوايتي المفضلة .

ـ فعليك بها إذن فهي كفيلة بإرواء ظمأك إلى العلم والمعرفة .

ـ ولكن لدي ما أقوله لك ، فقد تمكنت أن أتخلص أخيراً من جميع توابع الماضي البغيض !

ـ حقاً .. بارك الله فيك ولكن كيف ؟

ـ أظن أني لن أتمكن أن أشرح لك ذلك هنا وسط الزحام.

وسكت محمود فلم يردف شيئاً ، وسكتت نقـــاء أيضاً ، ونظرت إليه فرأته يتطلع نحوها بتضرع والتماس وشعرت أن عليها أن تفعل شيئاً تجاه هذا الرجل لكي لا تعقده ثقته بنفسه ولتوحي إليه أن نظرتها نحوه قد تغيرت وأنه الآن يختلف عما كان عليه من قبل فقالت :

ـ يمكنك أن تلاقيني في المنتزه .

ـ أحقاً تمنين عليّ بذلك ؟

ـ نعم لأنك أصبحت رجلاً شريفاً ومستقيماً .

ـ ولكن متى ؟

ـ اليوم في الساعة الخامسة .

ـ شكراً .

ـ لا داعي للشكر فليس هذا إلا واجب إنساني . .

ـ أما الآن فأظن أن عليّ أن أنصرف . .

ـ إذا سمحت بذلك طبعاً .

ـ طبعاً فلن أطيل وقوفك على قارعة الطريق .

ثم انحنى لها باحترام وذهب ، واستقلت نقاء « الأمانة » إلى البيت ، وفي تمام الساعة الخامسة كانت تتوجه نحو المنتزه لتستمع إلى حديث الرجل الغريب ، فهي لم تعد تخافه بعد اليوم بعد أن أشرق على قلبه نور الإيمان ، وهناك وجدته ينتظر ولم تشأ أن تذهب إلى ركنها القصي فاختارت مجلسها في ناحية واضحة من نواحي المنتزه ، وبعد لحظات من جلوسها سألها محمود في أدب قائلاً :

ـ هل لي أن أتحدث ؟

ـ تفضل يا سيدي ! على الرحبْ والسعة . .

ـ لقد أصبحت لي مرشدة وناصحة . .

ـ . . .

ـ وقد حدثتك في اجتماع سابق عن مشاكلي المعقدة ، يحول

بيني وبين بدء حياة جديدة ، ولكنك نصحتيني أن أحاول ..

ـ أنت تقصد زوجتك إذن ؟

ـ نعم إنها هي ، ولكنها لم تعد زوجتي والحمد لله ، فقد وفقت إلى إبعادها عن حياتي نهائياً .

ـ وكيف ؟ أعجزت عن إصلاحها ؟

ـ لقد حاولت ذلك إرضاء للمروءة ولكني لم أفلح ، لقد قضيت أسابيع طوال يؤرقني القلق وتعذبني الحيرة ، حتى جدث أخيراً ما قطع الشك باليقين ..

ـ آه ! ..

ـ نعم . . ولهذا فقد تمكنت أن أتحرر من سلطانها ونفوذها الشيطاني .

ـ وكيف ؟ ؟

ـ طلقتها منذ أيام ..

ـ يا لها من تعيسة !

ـ لا يا نقاء ! إن التعاسة تحتاج إلى شعور وإلى قلب وإلى كرامة ، أما هذه فلا تملك شيئاً من هذه الأمور ، ولهذا فهي لن تكون تعيسة مطلقاً .

فاستغربت نقاء ذكره لاسمها وهي لم تخبره به من قبل ، فسألته في استغراب قائلة :

ـ من أين تعرفت على إسمي ؟ ! فأنا لم أذكره أمامك على ما أظن .

ـ أبداً فقد كنت حريصة على أن لا تذكريه ، ولكن سعاد هي التي ذكرته لي .

فبغتت نقاء وسارعت تقول :

ـ سعاد ! ومن تكون سعاد هذه ؟

ـ إنها زوجتي السابقة التي حدثتك عنها منذ دقائق ، إنها الشيطان بعينه ، ليتك كنت رأيتيها لتعرفي ما أقول ...

وغرقت نقاء في فكر عميق . . أتكون سعاد هـــذه بنت خالتها هي ؟! أيكون هذا الرجل هو زوجها محمود ؟! ولم يسعها إلا أن تسأل بارتباك .

ـ كم هي المدة التي قضيتها معها بعد الزواج ؟

ـ أربـع سنوات ، عشنا ثلاثة منها في أوروبا

ـ في أوروبا !

ـ نعم ، ولم نرجع إلا قبل بضع شهور ..

ـ آه ..

ـ ماذا ؟

ـ لا شيء ..

ـ هل أزعجك حديثي عن سعاد ؟

ـ لا ، أبداً . .

ولكن محمود عرف أنها ليست على حالها الطبيعي ، ولكنه لم يعرف لذلك سبباً ، فعاد يقول :

ـ نعم إن سعاد هي التي ذكرت إسمك لي .

ـ وبماذا كانت تذكرني ؟

ـ أنا لم أُصارحك بالحقيقة بعد . . ولا بد لي أن أصارحك بها مهما كلفني ذلك من آلام: إن سعاد هي التيدفعتني إلى ارتكاب ذلك الخطأ الفظيع . . فقد صورتك لي على صورة هي طبق الأصل لصورتها الواقعية ، وكانت المادة تعمي بصري وتسيرني بسلطانها ، فصدقتها بما ادعت وأنت تعلمين النتيجة . .

ـ أو عملت سعاد هذا كله ؟ ! هل حقاً أنها هي التي كانت تدفعك إلى ذلك ؟ !

ـ إي وربي ! وقد أعطتني أوصافك لأتعرف عليك في المطار .

ـ يا لها من امرأة ؟ !

ـ نعم ، يا لها من امرأة !

ـ لم أكن أظن أنها سوف تنزل إلى هذا المستوى .

ـ أكنت تعرفينها من قبل ؟

ـ نعم إنها بنت خالتي !

ـ بنت خالتك ! إذن فأنت تلك الفتـاة التي كانت تحدثني عن ..

ـ عن تأخر أفـكاري ورجعيتي في الحياة .

ـ تماماً .

ـ ولكن . .

ـ ولكن ماذا ؟ وهذه آخر صفحة عار من حياتها اكتشفتها الآن عن بنت خالتك، وهي تقف مثل هذا الموقف المشين، حقاً لست أدري بماذا ينبغي أن أصف هذا الجرم الفظيع !

ـ إذا أردت أن تكون رجل اليوم فلا تصفها بأي شيء واتركها ومصيرها المظلم .

ـ ولكنها بلغت من الدناءة ..

ـ أرجوك يا أخي محمود لا تأتي على ذكرها بعد الآن ، يكفيها ما تلاقيه من آلام .

ثم سكتت نقاء وهي لا تكاد تصدق ما سمعته بأذنيها منذ لحظات ، ولا تعرف لذلك سبباً ، أي بغضاء هائلة هـذه التي بعثت سعاد إلى إلقاء هذه الأحابيل ، فهي لا تذكر أنها أساءت إليها يوماً ما ، ولم يشأ محمود أن يقطع عليها سلسلة تفكيرها ، ولكنها نظرت إلى ساعتها ثم نهضت وهي تقول :

ـ إن علي أن أذهب إلى البيت ، فلدي موعد مع بعض الصديقات فنهض محمود أيضاً ، وقال :

ـ هل لي أن أسأل عن موعد قدوم السيد إبراهيم ، وعن السبب في سفره إلى باريس ؟

ـ أما السبب فهو تقـــديم الأطروحة للحصول على شهادة الدكتوراه ، وقد حصل عليها ، وأبرم عقود جديدة مع بعض الشركات الأجنبية ليحصل على وكالات لبيـع منتوجاتها هنا . وأما موعـــد قدومه فهو في صباح يوم الأربعاء في الساعة الثانية عشر .

ـ أيمكن لي أن أكون من جملة المستقبلين ؟

ـ طبعاً فقد كتبت له عنك وحدثته عن جميـع التطورات ..

ـ يا لك من شخصية نادرة ، أيمكن أن تصل ثقتي بنفسي يوماً ما إلى هذا المستوى ؟

ـ نعم ، إذا استضاءت جميـع جنبات روحك بنور الإيمان .

ـ إذن فأنت تسمحين لي بالذهاب إلى المطار ؟

ـ وبكل ترحيب .

الخـــاتمة

وفي صباح يوم الأربعاء كانت نقاء تقف في المطار وهي تنتظر وصول الطائرة التي تقل إبراهيم ، وكان لدى استقباله عـــدد كبير من أصحابه وأصدقائه ، وقبل وصول الطائرة بقليل وصل محمود وكان بادي الإرتباك لعدم معرفته بأحد من المستقبلين .. وبدت في الأفق الطائرة التي تقل إبراهيم ، وبعد دقائق حطت على أرض المطار .. ونزل منها إبراهيم وقد علت وجهــه ابتسامة عريضة ، وحيي بيديه مستقبليه ، ثم توجه نحو الجمارك ، وهنا تقدم محمود ناحية نقاء وسألها قائلاً :

ـ أتظنين أن وجودي سيغضبه يا نقاء ؟

ـ على العكس ، فهو سيسر لمرآك وسيسعده أن يجدك في استقباله كأخ ..

ووصل إبراهيم فصافح مستقبليه بحرارة ، وكانت نظراته المعبرة تحمل لنقاء معاني كثيرة ، أغنته عن البيان ، وتولت نقاء تعريف محمود فقالت :

ـ إنه السيد محمود الذي حدثتك عنه في رسائلي .

فصافحه إبراهيم مرة أخرى وهو يقول :

ـ تشرفنا يا أخي محمود ، لقد حدثتني نقاء عنك كثيراً ..

وعلت حمرة الخجل وجه محمود ، فلا بد أن تكون نقاء قد كتبت لإبراهيم عن كل شيء ؛ ماضيه وحاضره . . وعند باب المطار تقدم محمود طالباً من إبراهيم السماح له بإيصالهم إلى البيت، فتلقى إبراهيم عرضه بسرور ، ولأول مرة ركبت نقاء سيارة محمود ، ولكن في صحبة إبراهيم . . ومضى محمود يقود سيارته ببطء ، وبعد مدة قصيرة التفت إلى إبراهيم وقال :

ـ أتعلم يا دكتور ! أن الأخت نقاء قد أخرجتني من الظلمات إلى النور ، ورفعتني من حضيض الخطيئة إلى أفق الفضيلة ..

ـ دعك من هذا يا أخي ، فهي لم تقم إلا بواجب مقدس يفرضه دينها ، ويدعوها إليه شعورها الإنساني ، دع الماضي يذهب في سجل التوبة ..

ـ نعم أنا أحاول ذلك جاهداً ، وسوف يتسنى لي هذا بعد أن تخلصت نهائياً من سعاد .

السيدة نقاء جيوشاً تقيها شر سعاد وأمثال سعاد ، إن سعاد هي التي دفعت بي نحوها لأخطىء، فجعلني كالها أتطلع نحو الكمال ، ولكن لم أتمكن أن أفهم لحقدها الأسود هذا سبباً !.

وهنا أردفت نقاء قائلة :

ـ ولا أنا أيضاً .

فأجاب إبراهيم بنبرة صارمة تنبض بالألم والكراهية :

ـ ولكني أنا أعرف يا نقاء ! نعم أنا أعرف يا محمود ! فهي لم تكن تقصد نقاء بهذا الحقد ، ولكنها كانت تقصدني أنا ، كانت تريد أن تنتقم من نقاء ، فظنت أنها تتمكن أن تنال من المثل والمفاهيم التي أؤمن بها أنا ونقاء ، ولكن فاتها أن جيوش العقيده التي تحمينا من كل كيد ، وتدفع عنا أي سوء .

واتسعت حدقتا نقاء وهي تستمع إلى إبراهيم، وسألته قائلة:

ـ وأي شيء تنقمه عليك سعاد يا إبراهيم ؟ ! .

ـ عرفتني قبل سنوات ، وحاولت أن تلقي حولي شباكها بشتى الأساليب ، ولما فشلت نقمت علي وهالها أن تراني قد انتصرت عليها بقوة العقيدة والإيمان، فأرادت أن تحطم عقدتي، وتسحق كبرياء روحي ، وكنت أنت يا نقاء ! سبيلها إلى ذلك . .

– سعاد ! .

– نعم ، سعاد زوجتي السابقة ، التي كانت السبب غير المباشر لهدايتي إلى مطلع النور ، كانت تقدر أنها تبعثني نحو الظلام ، ولكن النور هو الذي كان ينتظرني هناك .

سوف تحدثك السيدة نقاء ..

وهنا أردفت نقاء قائلة :

أنا لم أزل أجهل الكثير يا سيدي ! فلم أفهم حتى الآن الداعي الذي دعا سعاد إلى تلك المناورة مع أنها ...

ثم سكتت نقاء ، فلم تكمل جملتها .

ولكن إبراهيم كان يتابع كلماتها باهتمام ، فلما سكتت سألها في لهفة :

– مع أنها ماذا ؟ .

فقد خيل له – إلى إبراهيم – أن سعاد هذه ليست سوى سعاد بنت خالة نقاء ، وجاءه جواب نقاء مؤكداً لظنه :

– مع أنها بنت خالتي ! .

– آه ، وهل أساءت إليك إساءة شخصية سعاد هذه ؟ .

وهنا تولى محمود الجواب فقال :

انها لم تسيء إليها مطلقاً ، وإن حسبت أنها تسيء ، فإن لدي

وهنا خرجت الكلمات متقطعة من فم محمود ، وهو يقول:

ـ يا لها من امرأة أفي كل يوم تنكشف من سجل حياتها صفحة جديدة ، خطت كلماتها بحروف من ..

ثم سكت محمود ، فقالت نقاء :

ـ أحقاً أنها كانت تهواك يا إبراهيم ؟ ! .

ـ الآن فقط عرفت سبب الحملات الظالمة التي كانت تشنها عليك .. يا لها من مسكينة .

وكاد أن يصرخ محمود وهو يقول :

ـ ألا تقفين في طيبتك عند حد، أمثل سعاد يقال مسكينة !.

ـ إنها بشر يا محمود ! .

ـ ولكنك أنت فوق البشر يا أختاه !..

ـ لا ، أنا لست فوق البشر ، ولكني أرثي لحال هذه المسكينة ، وأرى أن أحد أسباب إنحرافها يعود إلى المجتمع المنحرف ، وإلى انعدام القيم الإسلامية فيه ، ولو أنها كانت في مجتمع فاضل ، وأنشأت فيه منشأة إسلامية صحيحة ، وهذبت تهذيباً روحياً حقيقياً ، لما وصلت إلى هذا الدرك ، فالمجتمع الفاسد يقدم كثيراً من الضحايا وأكثر ضحاياه من النساء ، لأنهن أعجل تأثراً وأسهل انقياداً ، وفعلاً . فقد انقادت هذه المسكينة

إلى ألوان الإغراء التي يضج بها مجتمعنا المتناقض .

فضحك محمود ، وقال :

ـ لا زلت تصرين على أنها مسكينة ؟ .

فابتسم إبراهيم ، وربث على كتف محمود وهو يقول :

ـ دعها يا أخي فهي نقاء ! .

ـ نعم إنها نقاء ..